الطفولة وعثرات الشباب

بقلم

المرحوم الأستاذ حامد محمد الطليجى

تطلب من الأمير المليجى بشارع حلوان رقم ٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ﴾

وبعد : فقد رغب إلى الأستاذ الأمير حامد المليجى فى أن أقرأ كتاب والده المرحوم الأستاذ حامد محمد المليجى « الطفولة وعثرات الشباب » الذى أجهد نفسه فى وضعه كما قال رحمه الله « فى حلة روائيه ، حتى يستوعب القارىء ما فيه ، مسحورا بعذوبة روايته البريئة من كل شىء ، ما خلا الحث على الفضيلة والأخذ بمعالمها » فقرأت كتاب الأب وأشرت على الابن فى أن يحذف من الطبعة الأولى المقدمات الطويلة للكتاب والتعليقات الثمينة فيه رغبة منى فى أن يسرع فى أن يمتع القراء بلب كتاب أبيه الفقيد على أن يثبتها فى الطبعات التالية ، وكنت فى اقتراحى هذا حريصا على أن أتيح الفرصة بسرعة اظهار الكتاب لأن تقرأه الشركات السينمائية ، لعل حب الخدمة الوطنية يدفع احداها على اخراج هذه الرواية التهذيبية التى كان يرجو مؤلفها « أن تطهر بها النفوس

والقلوب ، وتسموا بالشباب الى عالم الفضيلة ، وتخرج بهم عما ألفوه من الأعمال الدنسة المخجلة .

هذا ويقتضى واجب الأمانة أن أذكر أنى رأيت تحقيقا للغرض الذى ذكرته ، حذف الفصل السادس وتلخيص بعض تعليقات المؤلف على حوادث روايته ، والله أسأل أن ينفع القراء بنفثات يراعه وأن يتم على الأديب الأمير المليجى نعمة وفائه لأبيه فيتابع اخراج كتبه ، لينفع الناس بها ولتكون له نعم الذكرى ، والسلام ؟

محمود على قراعة

منشية البكرى فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٠

الفصـــل الأول

نتيجة طبيعية للتربية الأولية

تعس أضناه الأسى وأسقمه البؤس ، لم يبلغ الحلقة الثانية من عمره ، مات جده فضرب حظه بسهم فاجع فى الهموم والأحزان عاش بين غصص الزمان وتباريح المحن ، إن أفلح يوما فى دفع خطب ، كان نصيبه فى غده أعظم كرب ، هو هدف الدهر الذى يحسن الرماية ، كلما قذف سهما نفذ فى عمق أحشائه ، بيد أنه غالق بالحياة ، كريم العنصر ، يكدح فى محيط الشقاء ويكافح بقلب شجاع ونفس لايذللها الضيم ، وبينما هو رمز البؤس وعلم التعاسة تراه عنوان الاباء والشرف ولواء البسالة والمروءة ، لم يكن لوالده حظ من صفـــاته الشريفة وأخلاقه الكريمة ، فقد قضى الوالد حياته فى دور الدعارة أكثر مما قضى فى بيت أبيه الصالح الذى عاش ولم يجف له دمع ولم تسعد له حال لسوء خلق ولده ، ومات وهو كليل القلب ، أليم الجوانح ، مقـــرح الأجفان ، لأن ولده الوحيد كان حتى لحظات احتضاره منغمسا فى بؤر [illegible]

منه وينال منها !

على أن الرحمة الالهية قضت أن تتبع كل ضراء بسراء وكل بأساء برخاء ، فكانت نظرات الجد إلى حفيده « صابر » الذى هجره أبوه مذيبة لبعض الأحزان مخففة شيئا من الآلام ، ولكنها طالما كانت بمثابة الكبريت ، فى التهابه بين الهشيم والحطب ، فجددت ذكريات ماضى الوالد مع الولد ، وأذكت نيران الحزن والغم بين الضلوع :

مات هذا الجد ، بعد أن بلغ الستين من عمره ، وما كاد يعلم والد صابر بخبر وفاة أبيه ، حتى أسرع إلى المنزل الذى فضل المقام فى بيوت الدعارة على الاقامة بين جدرانه ، ولم تمكن إلا ساعات قليلة حتى وورى الشيخ محمد التراب فلم يبكه غير الحفيد وأمه وجدته ، أما « خليل » ولد هذا الشيخ ووالد صابر ، فقد نزلت من عينيه دمعة غير حارة جففها مجرد فكرة اعتورت مخيلته وهى أن المال آل أمره إليه ، وكانت أول كلمة نطق بها فى غرفة أبيه التى لم يكن قد تجدد بعد هواؤها الذى تنفسه الراحل « ماذا ترك والدى ؟ » ثم أخذ يحذر وينذر ويوعد ويهدد كل من يخفى عنه خافية الذى حقوق الوالدين ، فلم يحفظ لأيهما حرمة ، وجهل حقوق الابن

والزوجة فلم يبق لهما حتى الحثالة ، وجرد المنزل من كل شيء خف أو ثقل حمله ، ثم ولى إلى حيث تقيم عشيقته وأترابها تاركا صابرا وأمه وجدته فى أحضان الرحمة الالهية التى تغدق على البائسين والمنكودين !

* * *

ولقد كان شغف الوالدين بولدهما أعظم أسباب اتلافه وافساده عاش فى أحضانهما طفلا فصيا ، كما تعيش ألعوبة الأطفال فى يد أحدهم ! كانت الأم تساعد ولدها على هجر بيوت العلم والانغماس فى اتيان كل منكر ، ثم اختاط بسفلة الشبان فاقتادوه بسهولة إلى منازل الخلاعة ومواطن الدعارة ، فاختل توازنه الانسانى وأصبح خليل ذلك الشاب الذى لا يلهيه عن اللهو أو العبث بالآداب شيء! عكف « خليل » أولا على سرقة ما خف حمله من متاع البيت وبيعه بأثمان بخسة ، ثم تدرج فى ذلك إلى استلاب حلى والدته ، وكان الحزن تارة يجيش فى صدر تلك الوالدة فيثور غضبه على « خليل » وينقلب هناء البيت أو سكونه إلى نكد واضطراب ، كما كانت فى كثير من الأوقات تخفى عن زوجها ما افتقدته من أثاث المنزل

وآنيته أو حلى لها !

على أن ذلك كان من الأسباب السيئة التى بعثت فى نفس « خليل » الارتياح إلى عمله الذى يحصل منه على مطلوبه من المال لكى يقضى لبانته مع عشيقاته ، ومازال يقارع والديه ويقارعانه حتى قطع عندهما كل أمل فى تقويم حاله وانهاضه من عثراته وسقطاته ولا سيما بعد أن سولت له شياطين الأنس وسلطان شهوته وهواه أن يفتك بوالده ليخلو له الجو ويرتع فى بحبوحة ماله ، ولكن طاش سهمه فاضطر الوالدان إلى تمزيق أحشائها بيديها ، فطرداه!

وكان الوالدان — ولكن بعد فوات الوقت — يعملان كل شىء فى سبيل تقويم اعوجاج « خليل » ولكنهما نسيا أن الانسان كالعود الأخضر تستطيع تقويمه أو تقويسه أو وضعه على أى شكل أو صورة شئت له ما دام فى عهد الطفولة واليفوعة وما بينهما ، ولكن إذا ما مر على الانسان هذا العمر ، فكل جهد مبذول ضائع وكل عمل فى سبيل تقويمه باطل !

ولقد طرق الوالدان كل باب لهذا السبيل ، وكان آخر سهم رمياه هو الاقدام على تزويجه من ابنة عمه « صفية » فعاش العروسان

بضعة أيام فى شىء أشبه بالسرور ، ولكن سرعان ما نكص خليل على عقبيه ، يطرق أبواب من تعود مجالستهن ومقارعتهن ومنادمتهن ، وهجر هذه العروس البائسة بعد بضع ليالى زفافها ، لا لأنها لم تكن ذات جمال فقد كانت فيه آية ، ولا لأنها لم تكن ذات خلق وأدب فقد أدركت منهما كل غاية ، ولكن لأن الفسق والفجور قد حببا فى ارتكاب كل معصية وانتهاك كل حرمة !

مسكينة تلك اليتيمة البائسة « صفية » إنها قطعت ثلاث سنوات على اتصال بابن عمها الفاجر أو زوجها الناشز ، لقد سهرت أكثر ليالى هذه السنين الثلاث انتظارا لعودته ، ولكنها مع هذا كانت راضية بنصيبها ، بيد أنها طالما أنت وتوجعت كلما نالها منه أذى أو سوء ، وان دموعها الحارة التى كانت تحاول اخفاءها عن أعين زوجها ثم عمها وزوجته ، كانت تنم عن مبلغ آلامها من الحيلة لاسيما بعد أن رزقت من خليل بطفل جميل الصورة تشف مقاطع وجهه القمرى عن الخير والفضيلة !

على أن صرخات الطفل « صابر » الندية وأنغامه الشجية ونجواه الحلوة ، كانت أكبر تسلية للحزينة التعسة ، طالما أنستها أذى

زوجها لها وسلبها حليها واغفاله لشأنها ، وكثيرا ما ألهتها عن التفكير الطويل الذى كانت تقطع فيه الساعات ، وربما بقيت نهارها وليلها كئيبة تبكى حظها وتندب ساعة قضى الموت فيها على أبيها وأمها !

* * *

والآن وقد رفع الغطاء عن أعين الوالدين وعن قلب هذه الزوجة ، وعلموا أن كل تجاربهم لاصلاح « خليل » قد فشلت ، فعليهم أن يصونوا حياتهم المهددة بالخطر ممن لم يضنوا عليه بكل نفيس وغال !

لقد طرد « خليل » فهو بعد هذا اليوم اللص الطريد وليس الابن البار الذى لو كان قد أدب وعلم وثقف عقله ، لكان للأهلين ثروة لا تزول حتى بزواله ، وكذلك كان لوطنه . ولكن سبق السيف العذل ! ، وإذا بلغ السيل الزبى وتخطى فلا أمل فى الحلم ولا رجاء فى العفو ، وإنه لمن الحمق والجنون بل من الجبن والخسة ألا يجعل المرء لحلمه حدا ولعفوه أمدا ، وباطل ما يزعم الناس أن لين العريكة المفرط والهوادة يؤديان للنجاح دائما أبدا !

الفصـــل الثانى

صابر فى طفولته

صابر هو الطفل الذى قذف به القدر من سماك العالم المجهول إلى عالم الوجود الأدنى الذى نعيش فيه . لقد كان ثمرة تجربة الوالدين لاصلاح حال ولدهما ، فما كاد يشهد عالمنا حتى أخذ الدهر يتنكر له ، فإذا به تعس ليس له والد يحنو عليه ويضمه إلى صدره الرؤوم فينسرب إلى فؤاده وقلبه شعاع من السعادة الدنيوية ، فقد افتقد صابر والده وهو رضيع فلم يسعد بقبلات الوالد الحارة التى كثيرا ما تقطف من وجنات المولود الطاهرة .

إنه الآن يتدحرج على الأرض تتبعه نظرات والدته البائسة ، ماله يريد أن ينهض فيحوجه العضد والمسند ! إنه يبحث عما يقوم قامته ويعدل قوامه ، يرى أهل البيت بين روحة وجيئة ، منتصبين على أقدامهم ، فيتوق إلى الوقوف أو النهوض بنفسه مقلدا مثلا ، ولكنه سرعان ما تخور عزيمته ويسقط على أرض الفناء الذى يتدحرج فيه ، بيد أنه يكافح ويجالد للنهوض ، وأمه تتجاهل أمره

ورغبته لأنها تريد أن تنشئه على الفطرة أو قل إنها ترغب فى تعويده على الاستقلال بنفسه والاعتماد عليها فى كل أدوار حياته وما ينشأ له فى خلالها من المطامح والرغبات ! إنه يزحف الآن نحو اليمين بجد وقوة ! لقد قطع بضعة أمتار ! أين وصل ؟ إلى الجدار الذى نصب عليه حائط البيت الذى هو نزل آلام أمه وجده وجدته والذى قد يكون مبعث آلامه منذ ولد إلى يوم يموت ! وإنه لفرح مغتبط بفوزه فى جهاده ! وقد تفتحت أسارير وجهه الجميل ، وما أجمل الوصول إلى الغاية وما أعذب ساعة الظفر التى تنسى آلام الجهاد فى سبيله !

تخذ صابر الجدار فكان له سندا طيبا وتكأة قوية تساعده على النهوض والسير إلى أية جهة شاء . . ها هو يخطو بثبات وتؤدة فرحا محبورا . . ولكن ماله قد وقف بغتة . . لقد قطب وجهه وعبست ظاهرته . . لقد صرخ صرخة مزعجة مؤلمة . . سقط على الأرض سقطة تكاد تندك منها أعضاؤه . . اشتد بكاؤه وأمه لم تتحرك من مكانها منلهية عنه بما كان لديها من مشاغل البيت ، ولكن بعد قليل من الزمن أقبلت « صفية » على ولدها هاهاشة باشة ، وهناك

شاهدت « صابرا » رافعا ببصره تارة إلى سقف الغرفة وأخرى إليها كأنه يسائلها كيف الصعود إلى العلا ؟ وما أذكى هذه الوالدة فقد عرفت كيف تجيب على مطالب ولدها الطموح ! ها هو السلم ياولدى ، درجة بعد درجة تعلوها حتى تصل إلى ذلك الذى رغبت فيه ، وهكذا تكون الحياة وكذلك يكون الرقى والعلا فى أدوارها !

أما العجوز « فاطمة » جدة « صابر » فقد تسرب إلى قلبها وهى جالسة على قرب من « صفية » ولدها أنه استكشف بعينيه البراقتين الذكيتين صفحات مستقبله المخيف الفاجع ، وقد يكون ما ذهب إليه فكرها أن الطفل رأى صورة مستقبله الحالك فى سنى عمره ، رآه شبحا مخيفا فظيعا فارتعدت فرائصه واضطربت جوانحه وساءت حاله وسقط كما يسقط الجندى فى حومة الوغى . . ولكن عند ما يعالجه الفزع والخوف !

* * *

فى هذا اليوم طرد خليل لتآمره على اغتيال والده ، ومنذ تلك الساعة الرهيبة لم تتمتع عينا « صابر » برؤية وجه أبيه ، فلم يعش يتيما فحسب ، بل كان أشد يتما وأكثر حزنا ممن مات والده ، إذ

منذا الذى ينسى تلك الأويقات اللذيذة التى يقضيها الوالد مداعبا لولده ؟ انظر كيف تشعر بسعادة وغبطة عند ماتلتف ذراعاولدك الصغيران الرشيقان حول عنقك ، وتصور مبلغ تلذذك من تلك القبلة العذبة التى يضعهافه الطاهر على خدك المعشوشب أو جبينك المجعد ، ثم تخيل كيف يقذف بجسمه الأنيق وحمله الخفيف لاحتضانك ومعانقتك أوالتربع على أحد ساقيك ، وتذكر كيف يكون وقع رنين صوته الغريد وشجوه اللذيذ المطرب فى أذنيك . . إنه يناديك أبى . . أبى . . فهلا ترهف اصوته سمعك وتفتح له قلبك ؟!

إنه الملك والسلطان هذا الوالد الذى يشهد ذلك بعينى رأسه ، وإنه ليشعر بالسعادة والرفاهية والهناءة والخير والنبل كله ! أما الطفل الذى يجلب الهناء للقلوب والشعور بالعظمة والعزة ، فان حرم النطاع لوالده كان تعسا كسير القلب مكسور الجناح فى كل أيام طفولته ، ثم إذا تخطاها كان شاعرا دائما أبدا بكآبة تختمر فى قلبه ، لهذا بقى أثر الكآبة باقيا على وجه صابرلا يفارقه . وهو كلما فطن إلى الحياة واتسعت مداركه عظم همه وجاشت فى قلبه

ورأسه أفكار هائلة ينفطر لها الفؤاد !

* * *

إنه الآن تلميذ فى مدرسة ابتدائية يتغذى بلبان العلوم الأولية أمام معلميه فقد قرأ الكثيرون منهم على وجهه بشائر النجاح والفلاح ولكنهم كم لاحظوا كآبة بادية على محياه الجميل قبل أن تبرحها !

ولعل شدة عطف المعلمين عليه وكآبته الدائمة تقريبا كانتا سببا فى عدم ائتلافه كثيرا برفقائه فى الدرس ، الذين تعودوا ارتياد بعض الجهات للرياضة والنزهة ، غير أنهم يفضلون دائما الذهاب إلى الأماكن المستورة فى داخل حديقة المدرسة للاجتماع هنالك واللعب بما يسمونه «الظهر والطلع والطره والياظ» وأمثال هذه اللعبات التى تدفع الأطفال الى المقامرة !

انظر كيف يطلب إلى الصبى أن يضع نواة المشمش مثلا على أمل أن يكسب أضعافها حين يجىء « الظهر » بعد رميه على الأرض بلون أزرق أو أحمر ، وانظر أيضا كيف يطلب إلى الطفل أن يضع اصبع حلوى على أمل أن يكسب ضعفيه اذا جاء «الطلع أو الكعب» منتصبا وظهر سطحه الخشن بعد رميه على الأرض ، وتمعن فيما

يطلب إلى الغلام أن يعطى « ملبسة » ليكسب خمس « ملبسات » إذا هو دل على أى يد كان قد وضع فيها ملاعبه أو مراهنه قطعة صغيرة من القش بعد اخفائها ، فاذا لم ينجح فى أى رهان خسر نواته أو ضرب على يده بضع ضربات « بالطرة » يقرر عددها أحد اللاعبين « الحكم » وإن لم تكن بالطرة فباليد بعد قبضها لتكون أشد تأثيرا أو ألما فى الظهر أو أى ناحية من الجسم ، وقد تجر هذه المراهنات إلى اتيان أعمال منكرة !

لقد ذهب « صابر » مع هؤلاء الصبية مرة وشاهد هذه اللعبات فلم ترق فى نظره ، ولما عاد إلى أمه التى عودته مكاشفتها بكل شىء رآه وعمله فى يومه ، أخذت تبين له بأسلوب عذب مبلغ الأضرار التى تلحقه وتلحقها إذا هو ساير هذه الفئة من رفاق الدرس ، فكانت تضع نصائحها فى قالب روائى وقصصى ، فيستوعبها « صابر » لعذوبتها وتدفعه رقة شعوره إلى استحسانها والأخذ بما فيها ، لهذا لم يعد بعد تلك المرة يرافق أحدا من هؤلاء الرفقاء .

على أنه لم يكن جافا فى الطبع كما ظن واتهمه البعض ، كما لم يكن متكبرا ولا معجبا بنفسه أو ممتلئا بالخيلاء ، بل كان لطيفا يميل إلى

المحادثة فى أوقات فراغه إذا لم يشعر بتلك الحالة الخاصة التى تعتوره وهى ضيق الصدر وارتباك الذهن وانشغاله بهذه الغيوم الفكرية الكثيفة ، فكان إذا ذكر والده اكتأب وناجزه الفكر القاتل فلا تهدأ ثائرة نفسه حتى يقطع وقتا طويلا فى عزلة تامة تتحرك شجونه خلالها ، فاذا ما اعترضه مخلوق تزايد ألمه وعظم ضيق صدره بيد أن هذه الحالة النادرة الوجود بين الصبية قد جعلت تلاميذ المدرسة يجزمون بكبريائه عليهم . . .

شكا إلى أمه يوما ما عسى من رفاقه خشونة ملمسه وشدة استسلامه للحزن الذى يظهر واضحا على وجهه ، راجيا أن تنصحه باتخاذه رفيقا وصديقا فانه يشعر بالميل له ، فلما جاءها « صابر » وسألته لم لا يبش فى وجوه اخوانه ويشترك معهم فى مسراتهم التى لا تمس الآداب والأخلاق ؟ رفع « صابر » رأسه إلى أمه العزيزة وأخذ يقول : أماه ! ليس بين رفاقى صاحب صادق وفى ، ولكنى سأحاول أن أختبر الناس على محك الحوادث ، فاذا ما وجدته كالذهب النقى بعد امتحانه صاحبا نقيا تتجمع فى قلبه آيات الفضيلة والشجاعة والمروءة والصدق والوفاء ، تخذته أخا شقيقا ، بل صديقا ورفيقا

فقد يفضل الصديق الشقيق !

وقد أعجبت «صفية» بفطنة ولدها وفرحت بمتانة خلقه وتربيته وأدركت أن نصائحها التى كانت تسوقها إليه كل ليلة قبل نومه، فى قالب حكايات شهية وروايات خيالية خلقية، قد أوجدت فى رأسه شعلة الذكاء، وفى نفسه علو الهمة والإباء، وفى قلبه متين الايمان بأحكام القضاء الالهى. فاقتربت منه وضمته إلى صدرها مقبلة ومعانقة !

كذلك كان «الشيخ محمد» يصطحب حفيده «صابرا» فى كثير من الأوقات إلى بعض الجهات الخلوية البعيدة والحدائق العامة وبيوت الآثار القديمة والمتاحف العظيمة، وكثيرا ما كان الجد يسمح لصابر أن يدعو بعض رفاقه فى المدرسة للخروج معهما إلى هذه الأماكن وفى السياحات القصيرة فى قوارب النزهات !

وكان صابر كلما تقدم فى الانتقال من فرقة إلى فرقة بمدرسته اتسعت مداركه وقويت فطنته، وما هى الا سنوات ثلاث حتى نجح فى نيل شهادة الدراسة الابتدائية نجاحا باهرا، فأدخله جده فى القسم الثانوى، فكان بين رفاقه عنوان الاجتهاد ومنار الذكاء

ولكنه كان يخشى الاندماج فيهم فيخسر ما اكتسبه بالتطبع بطباعهم!

شكا « صابر » إلى جده يوما شعوره بخشونة فى معاملة رفقائه له ومقابلتهم إياه بشديد التأفف والاستهزاء والبغض ، فلما سمع الجد منه ذلك وفهم الأسباب التى جعلته لا يتصل بهؤلاء ، اقترح عليه ألا يباعدهم أو يخاصمهم ، وإنما يماشيهم إلى حد لا تنجم عنه أية خارمة للخلق ، على أن « صابرا » لم يكن ذلك الغلام الأبله أو الغبى الذى يغيب عنه مثل هذا الاقتراح ، فقد عالج رفقاءه به فلم يفلح لأنهم كانوا يعرفون أن « صابرا » ينكر عليهم سبل اعوجاجهم بدليل انه لا يشاركهم فى اقتراف سيئاتهم التى يطلع عليها والتى يشاركهم فيها بملء الأسف — بعض الأساتذة الذين ألقى على عاتقهم تربية النفوس وتطهير القلوب وتثقيف العقول ! لذلك كان صابر فى حرب متواصلة ليس فيها للمتقاتلين هدنة ـ تعلم كيف يبتسم للرفقاء بينما يكون قلبه مفعما بالحزن وعقله سابحا فى دياجير الظلمة من الأفكار ، لأنه إن لم يفعل ذلك ازدادت بغضاؤهم وتنكروا له ، وكثيرا ما كان يخفى باطنه عنهم بالاكتئاب الذى يعلو محياه مجاراة لهم فى حين أن قلبه يخفق سرورا لأنهم فشلوا فى الوصول

إلى غاية دنيئة !

يالله ! إن الانسان ليعيش الآن بين آلام نفسه وماينتابها وبين الآلام التى تنتاب الغير رغم أنفه ، حتى ولو كانت هذه الآلام لاتتفق أسبابها مع غايته ! حقا إن الشرف آية وجود الانسان الحقيقى وأن مظهرى الشرف «الأعمال والأقوال» فالأعمال البريئة من الدنس والأقوال الصريحة التى لا يخشى فى ترديدها ـ رغم قسوتها ومرارتها ـ لومة لائم ، هما ما نقصد أن نقول عنهما ونصفهما بمظهرى الشرف ، ومن تجرد من هذين المظهرين أو من كان له مظهر يتنافى فى أمره وشكله مع ما بسطنا ، فهو خاطىء دنىء لا يقام لقوله ولا لعلمه وزن أو حساب !

* * *

ما بالنا قد تركنا الجدة العجوز وأخبارها ، لقد تركناها تئن لعظم مصابها فى ولدها خليل ، كم رجعت العجوز المسكينة ببصرها إلى غابر أيامها حيث استنفذت كل عاطفة من عواطف الحنان ـ لولدها العاق ـ ثم ذكرت غلطاتها التى أودت بها إلى هذا ، لقد أضناها الأسى وأسقمها الألم ، بيد أن قضاء الله حينما

أصابها فى « خليل » الذى أضحى طريدا مكروها ، قد وقع فيها بلطف ورحمة ، فما أكرم خالقنا الذى يتبع شدة القضاء بكبير المؤاساة وعظيم الرحمة !

لئن أسقمها مصاب الابن بالأمس ، فقد أحياها زهاء الحفيد اليوم ، فهى تنظر إليه بعين الضراعة إلى الله أن يعوض لها ولزوجها عن والده به وطالما كانت تجلس بقربه وزوجها فرحة بانتصار صابر على جده فى كثير من الوقائع فى الشطرنج !

وقد اتفق يوما أن جاء صابر إلى المنزل ووجهه مكفهر يكاد يتطاير الشرر من عينيه ، وكان أول من نظره على هذه الحال الغريبة تلك العجوز جدته ، فأوجست خيفة عليه لشدة حزنه ، واعتزمت أن تبادره بالاستفهام والاستفسار عن سبب غضبه ، فما كادت تلفظ السؤال حتى شاهدت صابرا وقد اعتورته رعدة غريبة وخر ساقطا على وجهه فرق أحد المقاعد الطويلة . ثم انهطل الدمع المحرق من مآقيه ، فأخذت العجوز المسكينة تسمع منه خريرا وشهيقا ، فلم يسعها إلا أن تقترب منه وتخاطبه : صابرا ! ماذا أصابك ؟ اخبرنى عن حالك وارحم شيخوختى ، لقد أذبت فؤادى وقطعت أحشائى

فما الذى أوجعك لتبكى ولتقتل نفسك غما وكمدا؟ اعرض ياولدى عما أصابك وهش وبش واذكره لى ،لامتأثرا بل هازئا بشدته ساخرا بجسامته !

يالله ! إنه لايجيب نداء هذه العجوز البائسة التى تحركت فيها عاطفة الأسى والحزن، فأرخت لعينيها عنان الدمع وبكت بكاء مرا!

«ولكن لم تبكى يا أماه؟ ألا تتركينى ونفسى . . دعينى أبكى فليس هناك ما يخصك ! إن كل شىء يعنينى أنا فقط » هذا هو كل ما تلفظ به صابر عندما استشعر بمرارة بكاء جدته العجوز ، وهى جالسة بجانبه تمر بيدها الطاهرة على جسمه المرتعد كى تسكن ثائرته!

وكأن دمعات صابر الحارة كانت مفرجة لكربته ومهدئة لثائرة نفسه ، وما هى إلا دقائق قليلة حتى نهض بين يدى جدته وقد جف دمع عينيه ، ولكنه وقف متوسلا إليها ألا تخبر جده ووالدته « صفية » بما كان من حاله فى يومه!

« ولكنك لم تخبرنى بقضيتك ، وأنا لا أستطيع أن أقبل هذا الرجاء إلا إذا أسمعتنى كل ما كان لك فى يومك وافتقدت به قوة عزيمتك وقوة بأسك، فان فعلت ، عاهدتك على ماتريد» هكذا كان

جواب العجوز التى شاءت أن تصل إلى أعماق قلب « صابر » ، فأطرق صابر برأسه هنيهة يفكر فى أمر هذا الشرط ، ثم رفع رأسه وأخذ يقول بصوت يتهدج وقلب مضطرب وعين تموج فى بحر من العبرات « أماه ! كنت ولا أزال أشعر بوحشة فى حياتى وقفر فى حياتنا جميعا ، ولم أشأ أن أشعركم بهذا ، لأن مداركى العقلية ومعارفى العلمية كانتا لاتساعدانى فى التعبير عما يختلج قلبى ويرتاد رأسى من الأفكار ، بل كثيرا ما كنت أتجنب توجيه أنظاركم إلى تلك الحالة النفسية التى تعتورنى كلما مر بخاطرى طيف هذه الذكرى المؤلمة . . كم سمعتكم تذكرون والدى وتلفظون اسمه ، ولكنكم كم أخفيتم عنى أيضا أية معلومات أقف بها على حاله أو مقره وكنت ولا أزال أرى من الغضاضة عليكم أن أسائلكم ايضاح هذا السر العميق الذى يرتبط بحياتى بمقدار ارتباطى بكم ، ولكن ما حاولتم اخفاءه عنى قد علمته على لسان الناس وكشف لى الغطاء عن أمر هذا الذى كان سبب بعثى إلى هذه الدنيا ، حيث يواجهنى الشقاء ويصادمنى البلاء ! »

قالت العجوز : بيد أنك قد استعضت بجدك عن والدك !

صابر : أجل يا أماه ! ولكن شعور الانسان بوجود الوالد تعزية كبرى ، لا سيما عندما يصطدم والدهر المتنكر فى جهاد الحياة !

العجوز : ولكن يجب أن يكون هذا الوالد ينبوع فضل ورحمة ليستشعر حياته البنون والأحفاد ، أما إذا كان بؤرة للفساد ، فأقرب الناس إليه ، سواء أكانوا والديه أو أولاده أو أخواته ، هم أبعد الناس عنه وأشد المخلوقات بغضا له ، لأن حياته تكون سبة لهم جميعا ، انظر كيف أنكرناه كل الانكار بعد أن حاولنا اصلاحه كثيرا ولولا فضل الله علينا ، لكنت ياصابر فى هذا اليوم كأحد صبيان الأزقة ، لا صناعة ولا حرفة ولا علم ولا خلق ذلك لأن الوالد الذى يسفك دم الفضيلة فى كل حين وآن ، لا ينتظر منه أن يعنى بتربية بنيه تربية كتربيتك ومع هذا ، ياولدى ألست قانعا بجدك الذى عودناك مناجاته بلفظ « أبى » وهل يكون لك فى أى وقت أو ظرف مثل هذا الوالد الذى لا يهنأ إلا إذا قنع برضائك أو سرورك !

وهنا تحرك الستار الذى يحجب باب الغرفة ، وفيما كان صابر

يجول بنظره فى وجه جدته ، لمح هذه الحركة ، فقام من مجلسه مستأذنا وسار نحو ذلك الباب ، فإذا به أمام جده ووالدته ، ولم يكد يحرك شفتيه بكلمة حتى بادرته أمه بـ . . . « أهلا وسهلا ومرحبا ياولدى » فانحنى صابر أمامهما احتراما ، ثم دخل الثلاثة إلى المكان الذى ترك فيه صابر العجوز ، وكان « الشيخ محمد » يتكىء على كتف صابر ، وبعد أن استراح هنيهة حدق فى وجه زوجه ، ثم قال : ما بالكما قد قطعتما الحديث . . هل فى الأمر سر ؟

صابر : ليس فى الأمر سر يا والدى البار ، وإنما أحببت ألا أعكر صفوكما بكل ما يجيش بصدرى وخاطرى وما يقف عليه على من الناس ، ومع هذا فقد كان حديثى مع جدتى عن والدى ذا فائدة كبرى ، إذ قد ألمعت إلى الجدة بشىء عن الأخلاق والفضيلة ، وحبذا أيها الوالد الكريم المحنك لو أديت بجديد لنا ، فإن فى ذلك أعظم نفع !

صفية : نعم أيها العم المحترم . . ولتكشف لصابر عن كل شىء لا يعرفه ، فقد صار الآن أهلا لمعرفة ما كان من أمر والده العاق الذى أسعده الله ببعده عنه ، وهو على الحال التى نعلمها !

الجدة فاطمة : إنى إذن غير مقيدة بالعهد الذى قطعته على نفسى لك يا صابر ؟

صابر : نعم يا أماه !

الجد (بعد أن تسر له الجدة كلاما) : اجهد نفسك ياصابر فى محو أية ذكرى لأبيك الشقى من رأسك ، فإن كثرة تفكير الإنسان فى الدنس قد يجلب الدنس إليه !

صابر : ولكن ما بال الناس إذا رأونى اليوم ، يظهرون لى التألم لحالى ، وإنى لأخشى أن يؤلمونى غدا بمعايرتهم إياى بمصابى ! حتى كان ما كان اليوم من افتقادى لعزيمتى واستكارى لحيائى ، ولم يخفف عنى الألم إلا تلك الدموع التى أذرفتها !

الجد : أما الذين يظهرون التألم ، فهم جماعة حسنت طويتهم وسلمت نيتهم ولكن ضعفت عقليتهم ، وهم بينما يقصدون النفع والاحسان ، يسببون الضرر والاساءة ، ولو أنهم عقلاء فضلاء لأظهروا لك كل آيات العطف دون أن يوجعوك بكلماتهم السمجة التى يلفظونها بفكرة التعزية ، وأما الذين يتبجحون بذكر عيوب الناس ومعايرتهم بها ، فهم جماعة السوء بل هم فقراء الأخلاق

ضعفاء الايمان ، وفى اعتقادى يابنى أنهم أكثر الناس عيوبا ، بل وانهم لا يقصدون باندفاعهم فى تيار السفالة والخسة بذكر عيوب الناس أو تجسيمها أو الافتراء عليهم بها إلا غرضا واحدا وهو وضع ستار على عيوبهم أنفسهم ، فهم يريدون يا بنى أن يشغلوا أذهان وعقول الناس بذكر مسائل غيرهم حتى تنسى دنا ياهم ! والآن وقد علمت ذلك ، فقل لى إذن ما الذى حدا بك إلى الاندفاع فى تيار الغضب والحزن ؟

صابر : أبى البار .. منذ تفتحت أكمام أفهامى استشعرت بشىء من الشقاء ، فبينما كنت أسمع نداء الأطفال لآبائهم ، لا أجد ذلك الذى يعج إلى قلبه الطفل فيرتضع ألبان شفقته وحنوه ، ولكنى كنت أتسلى بضمائك إلى صدرك الرؤوم وارتشاف عذب حكمك الأبوية ، وكذلك كنت أجد من حنان أمى وعطف جدتى ما ينسينى هذا الشقاء ، بيد أنى طالما سألت أمى عن ذلك الألم الملازم لنفسى وتلك الوحشة التى لا تفارق قلبى ، فلم يكن جوابها شافيا لما يتنابنى من تلكم الحالات التى تتجدد كلما طافت بمخيلتى فكرة حرمانى من والد حقيقى ، والد أستند عليه كاستناد ى عليك فى تكوين مستقبلى .

بيد أن حزنى الكبير الذى كان يبدو على وجهى لكثير من رفقائى فى المدرسة ، قد جعلهم يتساءلون عن أسباب غمى . ولم أر من الصواب أبدا أن أكشف لأحدهم أو بعضهم عن أمرى الذى هو سبب أوجاعى .. أواه يا أبى .. غير أن شدة الحزن قد دفعتنى إلى الائتناس ببعض الرفاق فى الدرس فاتخذت ثلاثة استخلصتهم واصطفيتهم ليكونوا الى نعم الصحب وفاءا وإخلاصا ومن العجب أن يكون من وقع عليهم اختيارى قد شقوا بموت آبائهم كما شقيت بحرمانى .. سألونى عن آلامى وأسبابها، فأجبتهم بالكتمان . ولكن خارت عزيمتى يوما عندما اعتورتنى حالتى النفسية، فكان هذا مدعاة لدخولهم إلى قلبى وقرعهم باب اسرارى ، وسرعان ما فتح على مصراعيه وأخذت دفائن السر تتدفق على لسانى ، وما كان أبلغنى فى التعبير عن هذه الأوجاع التى تنازعنى فى الحياة المظلمة الحالكة التى نخوض فيها ، وكانت عبراتى الساخنة تنم عن مبلغ تلكم الآلام التى حركت ساكن أشجان هؤلاء الأيتام الذين أسرفوا معى فى استنزاع بحار مآقينا التى در فيضها وفيضانها ، ومرت بنا ونحن جلوس على مقاعد الحديقة التى كنا فيها عجوز ورمت بنظرة

إلينا فراعها ما شاهدت ! أربعة فى مقتبل العمر قد سبحوا فى بحار من الدمع الدافق ، مالت رؤسهم وسبلت أعينهم ووجمت وجوههم ، يا لتعاستكم أيها الأبناء ! علام تبكون وأنتم فى ريعان شبابكم ؟ أأيتام فقدتم آباءكم وأمهاتكم ، وكلكم أخوة ؟ هذا ما نطقت به العجوز التى كانت كلماتها بمثابة النار عند اقترابها من الهشيم الجاف فأذكت جهنما بين ضلوعنا وازددنا انتحابا ! بيد أنى قد تنبهت لسؤالها فرقأت بعض مدامعى المنسكبة وخاطبتها بقولى : « نعم ياأماه ، إننا أخوة فى الشقاء قد تلسنا والدينا فلم نجدهم ، انهم بين أموات قد ذبلت حياتهم أو أحياء استقبحت ذكراهم »

فقالت العجوز : وكأنى يابنى بالأولين خير من الآخرين !

فقلت لها : ولهذا ترين يا أماه أن وقع المصاب على أعظم من وقعه على غيرى !

وهنا تنبه رفاقى الثلاثة من نوبة أحزانهم ونظر أحدهم إلى ساعته ، فاذا بنا وقد قطعنا أمدا طويلا فى معمعان الآلام واستنزال العبرات ، فنهض « زكى » يقول : علينا أن نفى بوعودنا التى قطعناها على أنفسنا ، وقد ذكرت يا « فريد » كما ذكر لى « واصف »

أنكما مرتبطان بميعاد مع صديقين لكما ، فهلا تريدان انجاز ما وعدتما به . لقد أزف الوقت ، فلنوقف عبراتنا ، وليكن وجود هذه السيدة بيننا كرحمة من الله نزلت بنا فضمدت جراح قلوبنا وأحشائنا !

نظرت العجوز نظرة حنان إلى « زكى » كما حدقت بنا مليا ثم انبعثت تقول: بارك الله فيكم ! أجل .. دعوا المدامع الآن واوفوا بعهودكم فانه لاشيء أحب إلى الناس من ذلك الوفى الذى إذا قال فعل وإذا وعد أنجز !

« بل بارك الله فيك أيتها الأم الحنون التى رقأت مدامعنا بوجودك ، وكأنا بك ملاك الرحمة بعثك الله إلينا هذا ما أجبناها به ، ثم استأذنني رفقائى الثلاثة للانصراف مسلمين على تلك العجوز التى أخذت مجلسها بجانبى ، وأنا لا أزال دافق الدمع خافق القلب !

محمد : ولعل تلك العجوز هى التى ألمعت إليك بشيء عن خليل ؟

صفية : إنى أظن ذلك ابيد أنك قد أذبت قلوبنا يا « صابر » بوصفك الممتلىء أسى وحرقة ، فبالله عليك ارحم والديك ، واطرق باب غرضنا مباشرة !

الجدة فاطمة : لاتقاطعيه يا صفية ، وليقل مايمليه عليه وجدانه وشعوره ، فان فى ذلك تعزية لنا وله !

صابر : نعم ياجدتى ، فانى متى أعدت ما وقع لى ، شعرت بسلوى وتعزية لهذه الوحشة التى تنتابنى ، ولكنى مع هذا أرجو أن لا تكونوا بحديثى الطويل قد مللتم وتألمتم ، وعلى أية حال فانى أصارحكم الحقيقة ، أنى شعرت بميل كبير نحو هذه العجوز حتى أفضت لها بكل ماوصل إليه علمى من أمر والدى ، وكيف أنى كلما خلوت لنفسى طاف بى خيال البؤس والشقاء فلسع فؤادى ، ثم زدتها ايضاحا كطلبها فذكرت لها اسمى واسم جدى الذى ما كادت تسمعه حتى تهدج صوتها بكلمات رقيقة دلت على أنها تعرف ابى وتعلم مقره !

الجدة فاطمة (بلهجة حادة) : وهل اصطحبتها إلى مقره ؟

صابر : لا تعجلى يا أماه ، فأنى آت إليك بالقول الذى رقت العجوز لحالى حينما طلبت إليها أن تساعدنى على رؤية ولدك «خليل» وأن تجمعنى به لأتبادل معه ولو بضع كلمات ، لعل فى ذلك اخمادا لهذه اللهب المستعرة بين جنبى ، فأجابت طلبى على أن يكون ذلك

فى بيتها . . . فى بيت رفيع العماد ، التفت به الجنان والأفنان ، قضيت شطرا من الوقت فى حضرة ابن هذه العجوز الذى أوقفته على حالى ، ثم اجتمعت بهذا الوالد العاثر وحاولت أن أحتل قلبه أو أن أحله فى قلبى ، فتنافرت مشاعرنا وتباعدت أرصالنا ، خلته والدا ودودا ، فإذا بى أراه عدوا لدودا ، حافى القدمين ممزق اللباس رث الهيئة ، تشف من رويته الغلظة المتناهية والطباع المستنكرة المتباينة . . ويا لهول ما رأيت . . لقد كدت أصعق أو أذوب تحت نيران الأسى والغم والخجل والحياء ! . . فلما رأت تلك العجوز حالى من الغم والكمد ، أدركت ما سيعقب هذا من سوء الأثر ، فاختلست من هيئتى النظرات ، ثم انبعثت تسر إلى فى أذنى ، هون عليك يا صابر ، فليس هذا بوالدك ، وسرعان ما أمرت الخدم أن يخرجوه من حضرتنا ، فداخلنى الشك فيما رأيت وسمعت ، وظننت أن العجوز أرادت أن تضرب لى مثلا لمن أبحث عنه تبغيضا لى فيه ، فشكرت لها ذلك الصنيع ، وانصرفت من بيتها على أمل فى اللقاء . . . بيد أنى ما كدت أخطو بضع خطوات فى الشارع حتى استقبلنى أحد الرفاق ، فشاهد سوء حالى وتلبد أفكارى ، فأخذ

يناشدنى سرد الأسباب وفيما نحن بين الأخذ والرد ، و إذا بذلك الهيكل الوحشى الذى جمعتنى به تلك السيدة العجوز فى بيتها هجاما على يراودنى الصحبة وأنا شده الفرقة . . فلما اشتدبنا الجدل ، حاول أن يرغمنى على السير معه بقوته الغشومة ، فأفلت منه بعد أن اجتمع الكثير من الخلق وأصبت بكثرة الناس لمارى ووقوفهم على دفين أسرارى . . . لهذا بكيت لشدة الألم مما أصابنى فى يومى ، وما كنت أريد ايلامكم ، فمعذرة ياوالدى !

الجد : الآن وقد ختمت مأساتك يابنى ، وبعد أن لعبت كلماتك بنفوسنا وعبثت بأمن قلوبنا واستنزلت عاصر دمعنا ، لا أدرى شيئا أقوله تروبحا لأشجاننا ، إلا أنا سعداء بوجودك ونبوغك وأن مافد شعرت به من الجفاء نحو ولدنا العاق «خليل» هو الدليل الأعظم على علو همتك وحسن أدبك ، فلا تحزن ولتحمد الله على ما وهبك من عقل وفطنة وما ألهمنا من الصواب فى السعى لإنشائك على غير النشأة التى أنشأنا عليها والدك واجعل صدرك خزانة أفكار زاهية سارة ، تروق النفس والوجدان والتصورات الجميلة والتذكارات الحلوة والمواضى الباهرة والأفكار والأقوال

السديدة الرشيدة ! ولكن بالله عليك ياولدى ، هل تذكر لنا اسم هذه السيدة الصالحة التى دعتك إلى بيتها ؟ !

صابر : أما اسمها فقد سمعته عن لسان ولدها فى حديثى معه وهو « فهيمة » وقد استفسرت عن اسم زوجها المتوفى فقيل لى « حسن بك »

الجد والجدة وصفية (معاً) : السيدة فهيمة ! . . لقد عرفناها !

الجدة : كانت جارتنا لأمد طويل . . وإنى لأذكر أنها وضعت غلاما فى ليلة زفاف أمك ، ولعله ذلك الذى اجتمعت به فى دارها

الجد : وقد كان زوجها رجلا صالحا تقيا ، وانى لأذكره يوما وقد تبنى ابنة لقيطة وجدها أحد رجال البوليس

صابر : إذا لم تخنى ذاكرتى كانت هذه الابنة هى التى لمحتها عرضا عند صعودى على السلم والتى كان يناديها حمدى ابن هذه السيدة باسم « حكمة »

الجد والجدة : نعم حمدى وحكمة . . حمدى وحكمة !

صفية : إذن يكون من السهل جداً أن نجدد تعارفنا بهذه الأسرة الكريمة !

الجد : نعم وفى القريب .. ولكن (وقد نظر الجد إلى ساعة الحائط) لقد أزفت ساعة العشاء . فهلم بنا !

وكانت قد دقت ساعة الحائط الساعة الثامنة ، فهضوا جميعا وهم على اتفاق فى أمر تجديدهم لتعارفهم بأمرة حسن بك .

الفصل الثالث

الرذيلة

تعود خليل أن يتردد على صحبه المفسدين الفاسدين على دور الدعارة ، ثم مالبث القليل من الزمن حتى اتخذ له خليلة من البغايا كانت إذا طلبت اليه أن يكون حضور لديها بعد منتصف الليل ، يكر فى النوم فى بيت أبيه الى أن تحين الساعة المحددة ، ثم ينسل من فراشه خفية ، فيفتح الباب ويخرج ، بيد أن والدته طالما لاحظت عدم وجوده فى فراشه صباحا وكانت إذا أعطت ذلك أهمية تذكر مسألته فيتحل أى عذر للسيدة فاطمة التى كانت لا تخبر والده بأمره ، ولو اتفق لهذا الوالد سماع أى شىء عن ولده ، كانت هذه الأم لشدة شغفها بخليل أول من يدفع عنه أو ينكر ما وقع فان لم تستطع لا هذا ولا ذاك ، أخذت تخفف شدته وتلطف حدته !

وقد ظنت السيدة فاطمة أن خير علاج لولدها ، هو الاسراع فى تزويجه من ابنة عمه صفيه التى قامت وتقوم هى وزوجها على تربيتها حتى بلغت السابعة عشر من سنى عمرها ، وخاطبت (بعد ترحيب زوجها لفكرتها) خليلا بشأنها فلم يعترض أو يمانع ، وما هى إلا أيام قليلة حتى أقيمت معالم الأفراح العظيمة ، أما صفية فقد قابلت خبر الاعتزام على تزويجها من ابن عمها خليل بشىء من الأسف والحزن ، وفقدت منذ علمت بذلك الكثير من ابتساماتها العذبة ، فاذا بها مكتئبة طول نهارها غارقة فى بحار الأحلام المفزعة المخيفة فى منامها ، وذلك لأنها كانت على علم تام بسوء خلق وتربية ابن عمها ، انك لتراها تختلس الوقت لتخلو بنفسها طويلا لتروح عن ضيق صدرها ولتكبح جماح نفسها الثائرة بالبكاء ، بيد أن آلامها وأوجاعها التى عبرت عنها لنفسها فقط بعبراتها ، لم تغنها فتيلا ، فنزل بها القضاء وأمست عروسا لمن طالما ارتعدت فرائصها عندما كان يقع نظرها عليه ثملا !

وكان لخبر زفاف خليل على ابنة عمه رنة حزن فى قلب العاهرة أنيسة التى صممت على الانتقام من رفيقها ، وأخذت تدبر المؤامرات الدنيئة الفظيعة ضد خليل مستخدمة أولئك السفلة الذين يرتادون بيوت

الدعارة ويستبيحون كل منكر فى سبيل رضائها، فلما رأت تخلف عشيقها عن الحضور إليها، صممت على أمر آخر وهو العمل بنفسها للانتقام منه وكانت تعرف منزل والد خليل، فاخذت ترقب بابه عن بعد، حتى إذا ما رأت خليلا خارجاً من المنزل، تعقبت خطواته إلى أن يكون وسط الطريق العمومى فتهم هذه المومس الحقيرة ومعها نفر من العاهرات بالهجوم على خليل، وتأخذ أنيسة برقبته بينما تساعدها خليفاتها اللاتى جئن معها فى الصراخ والعويل، ولا تنتهى أمثال هذه الحادثة المؤلمة إلا بفضيحة كبرى يشاهدها الرائحون والغادون ثم بتمزيق ملابسه وضربه ضرباً مبرحا، وإنه لا يستطيع مقاومتها، وإلا كان نصيبه أكثر من خليفات المومس اللاتى سرعان ما يخلعن «شباشبهن» ويمسكنها بأيديهن ثم يهوين بها على خليل، ويكفى أن تتصور جندى البوليس يسير قابضاً بيمينه على خليل وبشماله على أنيسة ومن خلفهم العشرات من أولاد الشوارع والأزقة!

بيد أن شدة ما لاقاه خليل من هذه الفاجرة قد أبغضه فيها، حتى فضل المقام فى المنزل خشية اصطدامه بها!

وما هى إلا أيام قليلة قلت أو وقفت فيها تلك المظاهرات العدائية

حتى قطعت أنيسة كل أمل فى رجعته إليها بعد أن أصابها مرض الزهرى الخبيث ، وقد استلزم علاجها عدة أسابيع طويلة أنستها أحقادها على خليل ، ولم يعد خليل يفكر أبداً فى أنيسة ، وذهبت ذكراها من مخيلته كلية ، كما محيت ذكراه من رأس هذه العاهرة التى كسدت بضاعتها بمرضها ، ولم يعد هناك من حرج أو افتيات إذا أرادت أية مومس أن تمد بيدها إلى خليل لتتخذه رفيقا لها ولهذا كان بينهن موضع منافسة يتجاذبنه فى كل وقت يشهدنه !

* * *

وقد اتفق لخليل أن ذهب يوما إلى بيت إحدى المومسات وكان قد اعتاد الذهاب إليه فشعر بحركة غير عادية بين العاهرات اللاتى تضمهن تلك البؤرة ، وظهرن له كأنهن يخفين أمراً ، بيد أنه لما سألهن عنه لم ينل منهن جواباً شافياً حتى رابه أمرهن ، وتسربت إلى رأسه فكرة خطيرة ، هى أنه من المحتمل أن يكن قد نصبن له شراكا لايقاعه ، وبينما كان يجول بفكره فى تمحيص هذه الفكرة الغريبة المدهشة ، لاحظ عيون المومسات تتحول بين وقت وآخر - فى أثناء سمرهن معه - إلى جهة باب الغرفة التى

كانت خلفه ، كأن صاحبانها يراقبن شيئاً، فازدادت ريبته وحيرته واضطرب قلبه ، وما هى إلا لحظة حتى وقف بين صاحبة البيت وبين عاهراتها وطلب إليهن مهدداً بعصاه التى كان يحملها فى يمينه أن يخبرنه عن أسباب أضطرابهن !

ولكن نهنهة سيدة كانت تبكى بكاء مراً فى تلك الغرفة التى طالما رصدنها بأعينهن ، كانت خير جواب له على سؤاله وتهديده لهن ، ليكشفن عن سرهن فى تلك الليلة ، فلما وقع صدى صوت هذه الباكية فى أذنيه ، ولاهن ظهره وأسرع فى الدخول إلى تلك الغرفة ، بعد فتح قفلها ، ولكنه لم يكد يخطو خطوة إلى داخلها حتى شاهد امرأة تنتحب جالسة فى لباس الزيارة متكئة على مسند المقعد وسترت وجهها المكتئب بيديها المرتعشتين، ولما هم بالدنو منها ، أسرعت صاحبة البيت منتظمة بالحيلولة بينه وبينها . ثم أخذت فى اللعن ، مهددة متوعدة تلك المرأة الباكية ، على أنها مالبثت أن استدارت بوجهها الى خليل وأخذت تخاطبه : إنها من نصيبك الليلة ياخليل بك !

خليل (مخاطباً الباكية) : لا تحزنى ولا تبكى وارفعى يديك

من فوق وجهك المشرق ، ودعيني أشاهد محاسنك الفاتنة (ثم أخذ يمسح دموعها ويمر بيده على رأسها وعلى ظهر يديها المبللتين بالدمع ، فزادت المرأة انتحابا) !

إحدى المومسات : كفى عن البكاء يامجنونة ! !

مومس أخرى : هس . . هس . . حسبك بكاء ! ! وانعشى و « فرفشى » !

خليل : وماذا يفيدك بكاؤك ياحبيبتى ؟ دعينى أسمع أمرك لعلى أجد لك مخرجا منه (ثم نظر إلى منتظمة وقال) : ماذا يكون من أمرها ؟ هل ضربتها بيدك يامعونة ؟

منتظمة : أبدا . . وبالعكس منذ ظهر هذا اليوم وأنا أكرمها

خليل : وفى أى بيت كانت قبل مجيئها إلى هنا ؟

إحدى المومسات : (دى فروته جديدة) هذه فاكهة حديثة !

منتظمة : كانت كما تقول فى بيتها ، ولما تعرفت بها وعرضت عليها أن تعاشرنى قبلت منى ذلك ، ولكنها بعد وصولها أخذت تبكى كما تراها !

الباكية واسمها رقية : لم تعرضى على ذلك أبدا ، وإنما

دعوتنى إلى زيارة بيتك بعد تعرفى بك عند الخياطة مارى ، وما كنت أعلم قبل وصولى إلى هنا أنك من « بنات الهوى » ! من البغايا

منتظمة : كفى يا عاهرة .. ألا تعرفينى قبل الآن ؟ !

رقية (يزيد انتحابها) : ويلك ياظالمة من الله (ثم سقطت على قدمى خليل متوسله اليه بحق أقرب الناس اليه ، ومستحلفة إياه بالله أن ينقذها باسم المروءة والشرف)

خليل : خفنى عنك !

منتظمة . انهضى ياعاهرة .. من ذا الذى يستطيع إنقاذك ؟ ؟ وهل أنت فى جهنم حتى تطلبين النجاة ؟ ألسنا مثلك من عائلات طيبة .. وما الذى ينقصنا من السعادة والهناء .. ألسنا متمتعين أكثر من هؤلاء اللاتى يقرن فى بيوتهن أو يحبسن فيها كالعصافير فى أقفاصها ؟ لماذا لاتكون لك الحرية فى اختيار أكثر من رجل بينما تعطى للرجل الحرية فى اختيار أكثر من امرأة واحدة .. ألا تحمدين الله على كسرك لهذا القيد بمجيئك إلى بيتى (ومدت يدها الاطمة بها رأس المسكينة رقية ثم عادت تقول) كفى ! كفى ! كفى بكاء ! !

واستمرت منتظمة مسترسلة فى الحديث بكل ما استطاعت من خمسة ودناءة ، محاولة استدراج المسكينة رقية فى الكلام ، فلم تفلح أبدا ، ولم تكن تسمع لندائها ولكلماتها التى تفوه بها أى جواب أو إشارة من رقية التى ازدادا نتحابها وعظم شهيقها ومدت يدها إلى خليل قائلة : ارحمنى أيها الرجل وخذ بيدى ، ولكن شاءت منتظمة أن توقف رقية عن الاستنجاد خشية أن تؤثر بكلماتها على عواطف خليل ، فرفعت يدها لتضرب هذه المسكينة على وجهها متوعدة ، فمنعها خليل من عمل أى شىء وقال : دعى الآن كل هذا واتركينى لها ، وأنا كفيل باقناعها بالعدول عن طريقتها المحزنة ! اخرجن جميعا واتركننى وإياها !

خرجت المومسات من الغرفة تاركات رقية مع خليل وكان أول ما خطر لجميعهن أنه سيستولى على قلبها وعقلها ويهتك سر عذراوتها .

أما خليل فقد أغلق عليه وعلى الباكية باب الغرفة ، ثم أخذ مجلسه من المقعد بجانبها ، وهى لاتزال تحجب وجهها المكتئب بيديها المرتجفتين ، بينما كانت عباراتها تتساقط من بين مفارق

أصابعها اللطيفة ـ كانفراط عقد اللؤلؤ ـ حتى غسلت بمدامعها حجرها الطاهر ! ولا نخال القراء إلا تواقين للوقوف على ما كان يجول فى خاطر خليل من الأفكار ، وما كانت تطمح إليه نفسه من تلك الساعة التى انفرد بها بتلك الدرة الفريدة ، وإنه لمن الحق أن ننصف الانسان بالقول بأنه مهما بلغت سفالة الخلق عند المرء من الدركات ، فانه واقع لا محالة تحت طائلة كثير أو قليل من التأثر النفسى إذا اصطدم بحادثة خارقة لمألوفه أو عادته ، أو طرأ عليه أمر لم يكن يتوقعه وكان فيه ما يؤلم القلب والنفس !

لهذا لا يدهشنا أن نعلم باعتزام خليل على انقاذ هذه السيدة التى فتنت قلبه الحجرى ببكائها الحار ، ولكن كيف يتفق له تحقيق ذلك القصد الشريف ، وهو فى بؤرة نجسة مملوءة بسفلة القوم المتعاضدين مع صاحبات البيوت التى هو فى إحداها ؟ هذا كل ما كان يجول فى خاطر خليل أثناء جلوسه بجانبها صامتا يشهد بكاءها المر الذى كان كالمعول الحاد يخرب فى هذه الصفح التى تحجب غريزته الفطرية الطاهرة ، وأخيرا ارتأى أن يطمئن قلبها لكى يقف على حقيقة أمرها ، وليسهل عليه الاتفاق

معها على إنقاذها دون أن يثلم عرضها فى هذه البيئة الساقطة ، فقال لها : لقد أذبت قلبي أيتها السيدة ببكائك وإنى لا أريد بك إلا خيرا ، فكفكفى بالله دمعك ودعينا نتكلم فى حقيقة أمرك فقد خلا لنا المكان !

واعلمى أنه كان يفرحنى جدا أن تكونى صيد ليلتى ، ولكن حلت والحمد لله مكان هذه الفكرة الدنيئة السيئة فكرة طاهرة شريفة ، هى العمل بكل جهد لإنقاذك ، فليطمئن إذن قلبك !

ولقد كانت كلمات خليل بردا وسلاما على الباكية رقية ، فخرت على قدميه تقبلهما شكرا وضراعة وتوسلا ، وقد امتزجت عبراتها من الألم والشقاء بعبرات الفرح بحلول الأمل فى موضع اليأس وتسرب شعاع الهناء الى قلبها الكليل ، فكانت مدامعها بحرا ثجاجا يفيض على نفس خليل القاحلة وعواطفه الماحلة فيحولها الى جنة غناء ، ينبت فيها زرع الشهامة والشرف والوفاء ، فقالت وهى جاثية على قدميه بينما هو يحاول انهاضها لتأخذ مجلسها : أملاك أنت أيها الرجل الشهم أرسله الله لانقاذ بائسة منكودة الحظ من هذه الهاوية التى ليس لها قرار ؟ أجئت لترفع عن شقية شقوتها وترد

إليها هناءتها وسعادتها ؟ أم بعثت أيها الملك الكريم لنصرة الفضيلة ونجدة العفة وانقاذ الشرف ؟

خليل (وقد سبحت مآقيه بالدمع) : نعم ، هدانى الله لإنقاذك ياسيدتى ، ولكن . . حذار أن تتكلمى بصوت عال ، وعليك أن تخبرينى بكل قصتك وما سبب وجودك هنا ؟! وهل لى بالوقوف أولا على اسمك الكريم ؟

رقية (بعد أن رفعت يديها من فوق وجهها) أما اسمى فرقية . . وأما أمرى فيتلخص ياسيدى فى كلمتين هما « عثرات الشباب » ومعناهما أنى افتقدت والدى منذ عهد ليس ببعيد ، وقد تركا لى بوفاتهما أخا لم يهذبا نفسه كما تركا لى شقيقتين بين السادسة والعاشرة وكان هؤلاء الثلاثة كل ما أورثنيه والداى من عدة للدهر ومؤونة للحياة ! أما أخى الذى هو أكبر منى سناً فقد اقتنع بزوجة اجتمع عليها ذات شىء من الثراء ، فلم يعن بشأننا وتركنا ندبر حالنا بأنفسنا ، وإنه ليبخل علينا حتى بالسكنى بجوار بيته تنفيذاً لأوامر تلك الزوجة القاسية وأمها الظالمة ، وكنت إذا قصدته فى حاجة استعصى على أمرها ، لاقيت منه ما ألقى من الصخر الصلد ، بل وإن من

الحجارة لما تتفجر منه الأنهار ، وفوق هذا فانه لا يكتفى بالامتناع والرفض ، بل يصب على مبرح الأذى والضرب ، وإنه ليطمع فى شىء من الحلى كان قد اشتراه لى والدى قبل وفاته ، وأنا أعلم بشديد حاجتى إليه وحاجة أختى للتربية والعيش ، فان وهبته ذخيرتنا نحن الثلاثة ، بددها وتركنا على حالنا من البؤس ، لهذا رفضت طلبته ، وأنا أعلم بمبلغ حاجتنا وحاجته . . وكانت زوجته القاسية تنفث فى صدره من الحقد علينا ، حتى أصبح وكأنا له العدو اللدود ، وكانت ترتاد منزلى وأختى سيدة عجوز ، فشكوت لها حالنا مع شقيقنا ، وسألتها رأيها فى مصابنا ، لا سيما وقد فقدنا كل شىء من ثمن هذا الحلى الذى بعته فى السوق لكى نسد بثمنه حاجتنا إلى العيش . . فاقترحت على أن « أخيط » الملابس بالأجر وأحتمل الصبر ، وقد أخذت بنصيحتها ووفقت إلى معرفة خياطة مصرية أشتغل معها ، على أن أتقاضى ثلثى الأجر فى كل قطعة تقدمها لى لانجازها ، وكان فى مكسبى اليومى بعض الكفاية لحاجتى أنا وأختاى ، على أنى كنت دائما أبدا أطمع فى مضاعفة مجهودى لكى يزداد دخلى وأتمكن من اقتصاد شىء ينفعنا إذا وقع بنا مصاب أو اشتدت

بنا حاجة ، وفيما كانت تجول فى رأسى فكرة الادخار، إذ عرضت على إحدى الأجنبيات الاشتغال فى مشغلها الذى أقامته فى بيتها بمرتب شهرى يزيد كثيرا عما كان يدخل إلى من مكسبي الشهرى الجزأ ، فطرت فرحاً بذلك وسرعان ماذهبت إلى منزل هذه الخياطة التى سرها وجودى ، لأنى على علم تام بالتفصيل والحياكة حديثها وقديمها ، ولكن . . والأسفاه لقد تسبب عن ذهابى إلى بيتها مصابى الذى أنا فيه ، وإذا لم تدركنى الليلة رحمة الله ، فقد تدنست عفتى وقتل الجوع أختى (وهنا اعتورت رقية نوبة بكاء مر حركت كل أثر لعاطفة شريفة فى خليل)

خليل : اسردى حكايتك ، وتأكدى أن رحمة الله لا تغيب عنك وعن أختيك !

رقية : أشكرك وأرجو أن تجرى هذه الرحمة على يديك . . نعم ذهبت للاشتغال كما قلت عند مارى ، واتفق أنى كنت اليوم فى عملى ، فجاءت إلى جانبى سيدة اعتادت الحضور إلى البيت والجلوس مع صاحبته ، فعرضت على متوسلة — تفصيل زفاف عروس وانجاز خياطته فى مدة لا تتجاوز الأربعة أيام فى أوقات فراغى

من العمل ، فلم يسعنى ياسيدى إلا القبول ، وقد حددت لها الساعة الخامسة بعد الظهر وعينت لها محل الانتظار لأصطحبها إلى بيتها لمشاهدة الحرائر والزخارف وللوقوف على المقاييس للتفصيل . . على أنى كمنت فى واد وكانت تلك المرأة التى تقودنى فى وادآخر، وهل تعرف ياسيدى إلى أى بيت جاءت بى ! ! إلى هذا البيت حيث تقدم الأعراض للناس كالسلع (وهنا خرت رقية أمام قدميه).. أسألك النجدة والمروءة وأضرع إليك بأعز شىء لديك أن ترحمنى وتحفظ على عفتى وتنقذنى من هذه الهوة السحيقة !

خليل : انهضى يارقية واعتقدى أنه لن يمسك أذى إن شاءالله مادمت حيا ، وعليك أن تتظاهرى بالسكون والرضى بالعيش بينهن ، حتى أذهب لاستدعاء البوليس واخباره بوجودك هنا (ثم أطرق خليل قليلا وعاد فقال) لا . . يجب ألا أخبر جندى البوليس الموجود فى هذه النقطة القريبة . . يجب أن أخبر ضابط البوليس نفسه وأحاول إخفاء نفسى حتى لاأكون عرضة لانتقام هؤلاء العاهرات الدنيئات ، وها أنذا ذاهب ، فتشجعى ولاتيأسى وإذا سئلت عن أى شىء فلا تترددى فى الاعتراف ولو بأشياء دنيئة ،

لتأمنى جانبهن فى وقت غيبتى . . سأعود إليك حالا ، فالى اللقاء :
وستكونين بين أختيك فى هذه الليلة . . . تشجعى !

وكان خليل قد خطا بقدميه نحو الباب عند آخر لفظة ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى قفل باب الغرفة بالقفل وأخذ مفتاحه معه فى جيبه ، وكانت منتظمة مشتغلة هى ومن عندها من الموسسات فى استقبال الزبائن أو الطارقين لبيتها من العاثرين ، وأخذهم إلى غرفة وسيعة أعدت للاستقبال ، حيث يعرضن جمالهن الصناعى الدنىء وفيما كانت العجوز الفاجرة تستعرض عاهراتها على مشهد من زائريها ، دنت من أذنها خادمة الباب فأسرت إليها بكلمات قصيرة لم تكد تسمعها حتى تهلل وجهها من البشر وهرولت إلى الخارج فالتقت بخليل خارجا من عند رقية متظاهرا بالسرور ، فبادرته بالسؤال عما وقع بينه وبين رقية ، فقال : كل شىء على هواك يا منتظمة !

منتظمة (دهشة) : أتقول حقا ؟ لا تضحك منى !

خليل (بثبات عجيب) نعم وإنى ذاهب الآن لاحضار شىء من الخمر وسأعود حالا ، ولقد أغلقت عليها الباب وأخذت مفتاحه حتى لا يتمتع بها غيرى فى هذه الليلة (ثم مد يده فأخرج محفظة نقوده

وأعطى منتظمة منها ورقة قائلا) : خذى هذا الجنيه من تحت الحساب .... سأعود حالا

منتظمة : برافو ! برافو ! مرحى ! مرحى ! لا تتغيب كثيرا ، لأنى أريد أن أشرب معكما كأسا .. ولكن اسمع . . يوجد عندنا الكثير من أنواع الخمور ، فلماذا لا تشترى من عندنا ؟

وفيما كانت تقول منتظمة هذا ، كانت أرجل خليل تنهب درجات السلم ، ولم تمض عليه بضع ثوان حتى كان فى الشارع ، فرجعت منتظمة إلى غرفة الاستعراض ، ولم تتمالك نفسها من الفرح فأخذت تبشر سراً كل المختلطين من الرجال والنساء بوقوع رقية .

وبينما كان صدى ضحك ثلة الفسق والفجور يدوى كالرعد فى الأمكنة القريبة والبعيدة ، وإذا بالباب العمومى للبيت وقد دلهته فرقة من الجند على رأسها ضابط ، وما هى إلا ثوان معدودة حتى كانوا فوق رؤس منتظمة وعاهراتها ومن بينهن من الشبان .

الضابط شفيق (يخاطب جنده) بعد أن حدق بنظره فى جميع الموجودين) : أحيطوا بهؤلاء ولا تدعوا أى فرد منهم يفلت من بين أيديكم ، (ثم التفت إلى منتظمة وقال) أين الغرفة التى سجنت فيها

رقية أيتها العاهرة الملعونة !

منتظمة (بشبات وتؤدة) رقية ؟ ! من هى رقية ياحضرة المعاون ؟ وكل ماعندى من النساء أمامك . ومع هذا فتعال وفتش البيت ! (ثم تقدمت نحو الباب وطلبت إليه أن يتبعها كى يفتش الغرفات)

فسار الملازم شفيق إلى بهو البيت ، وفيما كانت المومس تتهم أعداءها بالكذب للايقاع بها بما أبلغوا عنه ، إذ وقفت بغتة وأسرعت فى وضع يدها فى جيبها واستخرجت شيئا وهمت بأن تعطيه إلى الضابط الذى كان قد أدرك ذلك ، فأشار إلى اثنين من رجاله باشارة كان قد اصطلح عليها ، وإذا برجلى البوليس وقد قبضا على يدها وما فيها ، فأخذت تسب وتلعن ، فلم يعبأ الضابط الشريف بما كانت تقول ، إذ كان قد وقع فى أذنه صوت استغاثة شديد من غرفة مغلقة فقصدها توا وضرب بابها بقدمه ضربة شديدة ، فكسر قفل بابها ، وإذا به يجد نفسه أمام فتاة فى العشرين من عمرها تبكى وتنتحب ، وما كاد يقع بصرها عليه حتى جثت على قدميه ضارعة إليه أن ينجيها من براثن هؤلاء الأوغاد ، فأخذ

الضابط بيدها فأوقفها قائلا « لقد جئت لانقاذك فاطمئنى » ثم استدعى أحد رجاله وطلب إليه أن ياخذ رقية الى العربة التى كانت فى انتظاره أمام البيت !

ورجع الضابط إلى الغرفة التى ترك فيها جنده محافظين على من فيها من عاهرات وشبان ، فوجد أن الخمرة قدلعبت دورها فى رؤس أكثر الشبان ، فأخذوا يعتدون على الجند وعليه بفحش السباب ، فاعتبر ذلك اعتداء منهم على موظفى الحكومة فى حين تأدية وظيفتهم ، فأمر باقتياد الجميع إلى دائرة البوليس لعمل المحضر اللازم ، وإنها لفضيحة كبرى إذ كنت ترى الشبان وقد ربطت أيديهم كلهم بحبل واحد ومن خلفهم العاهرات ، والكل يمشون فى الشوارع المؤدية إلى القسم تحرسهم ثلة من رجال البوليس ، بينما ترى الناس غادين أو رائحين ، قاعدين أو واقفين يشهدون صفوفهم الحقيرة !

وأخيرا بعد عمل المحضر اللازم فى دائرة الشرطة ، دون أن يظهر خليل ـ بعد أن دبر الأمر وأرسل شيخ حارته لضمان رقية للافراج عنها ـ لم تمض الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، حتى

كانت رقية فى وسط أختيها زينب وزاهية ، هاتين اليتيمتين اللتين قضيتا فى انتظار اختيهما من الساعة الخامسة مساء إلى الساعة الثالثة صباحا ، وهما تبكيان ، لاتعرفان لها مقرا .

وفيما كانت فى سبيلها إلى مسكنها ، التقى بها خليل ، فقص عليها ما كان من أمره ، وكان فى أثناء سيرهما ، يكاد يسمع صدى دقات قلبها الخافق حنانا إلى أختيها وفرحا بالنجاة !

ولما عاد خليل من جهاده الشريف ، أسرعت السيدة فاطمة إليه ببشرى ولادة صابر ، فهش وجهه وبش ، وكان قلبه الحار لا يزال يرقص طربا بنجاحه فى إنقاذ رقية ، فأخذ فى مشاركة الكل فى مسراتهم ! وذهب إلى فراش نومه ، منهوك القوى ! ولقد تمثلها وهى راكعة أمامه ضارعة إليه ، تخيلها وهى واقفة قبله تعيد على سمعه استنجادها لغيرته ومروءته ، فاذا بها هيفاء فى قوامها ، حسناء فى طلعتها ، تتسلسل من رأسها سبائك من الشعر الذهبى قد عبثت به الأيدى فى ساعات البؤس ، فانتشر على جسمها يظلل عارضتيها ويحجب خصرها ويكسو صدرها ، لها عينان سوداوان ناعستان يظللهما حاجبان مقرونان كأنهما فى خضاب ، وكأن الكآبة

والحزن لم يذبلا وردتى خديها فبقيتا زاهيتين بحمرتهما ، يكاد يتخطفهما الناظر إليهما لما فيهما من جاذبية مسحورة وعطرية ملحوظة ، دقيقة الأنف ، ضيقة الفم ، رقيقة الشفتين كستهما حمرة الشراب الطاهر ، ذات عنق من اللجين الوردى يعلو ربوة بيضاء فى جنة دانية لا يغيب الرمان عن أشجارها الوارفة ، غصن بان إذا هفته عاطفة الأسى فهو الزهر فى شذاه ، تتلمسه فلا تقبض يدك إلا على فضيلة وارفة وعفة راشفة وشرف يزدهى وفضل يشتهى!

هنا تحركت فى قلبه عاطفة غريبة ، فاذا بروحه تطير وتحوم حول مسكن رقية التى سلب خيالها قلبه ! ولكن لماذا لم يفتتن بها عند رؤيتها رؤية حقيقية ؟ ذلك لأن الغريزة الطاهرة التى فطر عليها كانت قد طمست على كل المحركات الشهوانية التى عنده ، ولم ترفع عنها غطاءها الكثيف حتى نفذ قضاء الله وحفظ على تلك البائسة عفافها ، وإنها لرحمة الله يرمق بها البائسين الذين لم يزعجهم المصاب فيبقى إيمانهم بالله أكثر من إيمانهم بوجودهم !

* * *

وكانت رقية وحيدة فى مسكنها ، مشتغلة بتجهيز بعض الملابس

التى لم تنجز هالتغيبها ، وإذا بخليل يطرق بابها ، فوضعت على رأسها الذهبية ماتحجب به وجهها الجميل ، ثم فتحت له الباب فدخل يتيه عجبا ، وقد أفاضت رقية فى شكره على حسن صنيعه بلسان عذب ردد آيات الاعتراف بالجميل !

ثم استدرجهما الحديث إلى ذكر شىء عن عائلتها وعائلته ، وهنا أخذ خليل يأتيها بأقوال يفهم منها مبلغ ثروته العظيمة وجاهه الكبير ، بيد أنها قابلت كلامه ببسط حقيقتها الشريفة الصادقة !

أواه ياسيدى الكريم . . إنى لاأفكر فى شقائى قدر تفكيرى فى تعاسة هاتين الطفلتين اليتيمتين . . ولا أجد إذا جلت بنظرى يمينا أو شمالا من تأخذه الرحمة والرأفة من ذوى القربى منا فيعطف علينا . . لقد ذهب ذلك العصر الذى كان فيه للاعراض ثمن واحد هو الروح . . أما اليوم فالشقيق الحميم والقريب الحنون ، إذا تعارضت أية مصلحة له مع مصلحة لشقيقته أو ذات القربى منه ، فانه سرعان ما ينتزع كل منهما من بين جنبيه تلك العاطفة ثم يطأها بأرجله ولا يبالى إذا أصابه من وراء ذلك مايثلم شرفه أو يلمس كرامته أو يجرح عفة أقرب الناس إليه ! رجالنا الآن ياسيدى فى

عصر المادة المجردة من كل العواطف والمعنويات ، لا يعبأون بشرف أو كرامة أو عرض ، وكل مايكون فيهم من ميل يبدونه خشية اتهام الناس لهم بالجمود والضعة ، هو ممثل فى أقوال دون أفعال وعبارات مؤثرة تبكى القارىء والسامع ولكنها لاتجرح القلوب ولا تقلل قيمة مافى الجيوب ، ذلك لأن الأخلاق الحسنة والتربية الكريمة التى تنجم عنها الفضيلة الحقيقية قد توارت عن أعينهم آياتها واختفت عن أبصارهم معالمها ، ولم يبق لهم منها إلا الاسم الذى تلوكه ألسنتهم ولا تنفعل به جوارحهم !

وانك لتخدع أحيانا ياسيدى فى قول البعض لك إن فلانا يحن عليك ويتوق إليك ، ولكن لعمرى إذا لم يكن لهذا الحنو أو الشوق من مظهر يتجدد على توالى الأيام فى الشدة والرخاء ، فما أكذب هذا الادعاء ! وباطل ياأخى أن يدعى مخلوق ما أنه يضم بين جنبيه عطفا عليك فى شدتك فى حين أنك لا تجده أمامك أو بجانبك فى وقت هذه الشدة . ووالله إنه لعطف لا يتعدى اللفظ فحسب ، بل لا أثر له ولا وجود ، وهل يكون أكبر من هذا البرهان أنك تناديه فلا يسمع ندامك ولا يجيب دعوتك ، وإنه

ليدهشك مثلا أن يكون فى حضورك بين يديه فياضا من الحنو والعطف الكلامى ، حتى إذا غادر مجلسه أو اعترضت مصلحة لك مصلحة له ، كان لك من الصخر ما يمكنك إلانته . . أما هو فلا . . لهذا وجب على الناس أن يودعوا أمثال هؤلاء العاقين فى صداقتهم وداعا أبديا لكذب حنوهم وباطل عطفهم ، وطوبى للأبرار الذين يبتسمون للمصائب وتنشرح صدورهم للنوائب ، لا يعتمدون إلا على أنفسهم وما هبهم الله من الإيمان والخلق الحسن والعقل الناضج !

واستمرت رقية فى ذكر هذه العظات مدة طويلة كان فيها خليل متلذذا بما يسمعه من ذات القلب الفياض بالطهر ، وما زال كذلك حتى قالت له : قل لى ياسيدى من ذا الذى يسأل عن تربية ثلاث بنات ومستقبلهن إذا كان أقرب الناس إليهن ، أبعد الناس بقلبه عنهن ! لهذا نعيش فى ألم وشقاء محتملات كل هذا بعزم حتى يدركنا الموت أو يرحمنا الله أرحم الراحمين !

وما كادت تنتهى رقية من حكمها حتى بادرها خليل باعلانها استعداده للقيام على أختيها وعليها ، إذا قبلت أن تتزوج منه منعاً

لكل شبهة يرميها بها الناس !

فأطرقت عند ذلك رقية تفكر مليا ثم قبلت ، بشرط أن يكون طلب زواجها موجها إلى أخيها درويش ، وأن يقبل قبولا أكيدا أن تعيش أختاها معها !

الفصل الرابع

سر عائلة حسن بك

إن كان للفقراء أنواع من الشقاء ، فللأغنياء مثل هذه الأنواع ، وقد تزول تعاسة الفقراء ، أما الأغنياء فتبقى عليهم آلامهم ويقطعون أعمارهم فى تعس العيش رغم ما يكون فى خزائنهم من مال وفير أو فى بيوتهم من كنز ثمين

ومع هذا فالناس يحسدون الأغنياء كلما وقعت عليهم أبصارهم فى غدوهم ورواحهم . ولو أن هؤلاء الحاسدين قد منحوا كل ما يملك الأغنياء من مظاهر الثراء ، وسلبوا ما هم عليه من راحة البال فى كثير من أوقاتهم ، لتاقت نفوسهم إلى ما يكون عليه حال الفقراء وحنت قلوبهم إلى ما يملك المساكين والتعساء

بيد أن الناس طالما يختلون بالمظاهر ولا يكلمون أنفسهم الاستقصاء إلى ما وراءها ، فان رأوا وجها باشاً يحكمون فى الحال بسعادة صاحبه ، والحقيقة أنه يهش ويبش فى وجوه البشر جريا وراء سنتهم فى الحياه !

* * *

حسن بك رجل ناهز الخامسة والستين ، قضى عهداً طويلا يتقلب فى مناصب الحكومة الرئيسية ، وله ثروة طائلة جمع بعضها بكده وجده ورجع إليه البعض الآخر عن أبيه ، وكذلك كانت زوجته فهيمة ابنة خالته اليتيمة الأبوين ذات ثراء ونعمة ، بيد أنهما عاشا طويلا فلم يرزقا بمولود يتمتعان به!

وما كان أشد آلام حسن بك عند مايرى أطفال جيرانه يلعبون فى فناء الشارع أمام بيوت آبائهم حيث يشهد ألعابهم وهو جالس على كرسى أمام عتبه باب داره ! إنه ليشهدهم من بنين وبنات ، يرقصون ويقذفون أو يصرخون ويلحنون . تساعدهم على ذلك أغصانهم الخضراء الرطبة

الجذابة التى تتحرك عند رؤيته لها كل عواطف أساه وحزنه! واتفق لحسن بك أن اصطحب يوما صديقا له وكان طبيبا إلى نزهة فى احدى الحدائق لترويح النفس ، فاختطف بصره رتع الأطفال ولعبهم ، شجوهم وتغريدهم ، وما لبث أن أطرق برأسه تحسراً ثم سقطت دمعة دفع بها إلى مآقيه ذلك الرجل الملتهب بين جنبيه ثم قال لصديقه : اخرج بنا ياعزيزى الدكتور عن هذه الجهة !

الطبيب ظفل : لماذا ؟ إنى كلما رأيت طفلا أو طفلة تصورت ولدى المحبوبين ، وسرعان ما أشعر بفرح تهتز له كل أحشائى !

حسن بك : وإنى على النقيض من ذلك ياعزيزى!

الطبيب ظفل : ولم هذا ؟ أفقدت طفلا من أطفالك أم جميعهم ؟

حسن بك : لم أفقد أحداً لأنى لم أرزق بأحد ، وقد بلغت من الكبر عتيا !

الطبيب ظفل : أذكر أنى عالجت أكبر منك سناً ، ونجحت

والحمد لله فى شفاء عقره .

حسن بك : لقد عالجنا نفسينا أنا وزوجى بكثـــير من الوصفات التي وصفها لنا الناس ، فلم نترك وليا إلا نذرنا له ، وكم أرسلنا للقوديات قطعا من لباسنا قد غمرها عرق جسدينا لتكشف لنا الجن والخدام عن الداء والدواء ، وكم ارتدنا القبور المهجورة ودفنا فيها الكثير من الطيور السوداء المنحورة وكم ارتضعنا من ألبان الحمير عند اعتلائنا لظهور البعير، وكان كل ما وصف لنا وفعلناه عن طيب خاطر غير ناجع لعلتنا

الطبيب ظيفل : ها ! ها ! وإنه ليؤلمنى أن تكون متعلما ثم تماشى هؤلاء المشعوذين فيما يقولون ويعملون ! والآن وقد مضى ما مضى ، وإنك لاتزال على حالك ، فلتجرب علم الأطباء ، ومتى رجعنا إلى المنزل فسأفحصك إن شاء الله فحصا جيدا وأرجو الله أن يساعدنى على اكتشاف علتك أو علة زوجك

* * *

وكانت معالجة الدكتور ظيفل خير السبل لشفاء عقر حسن بك هو وزوجه ، وما هى إلا أشهر قليلة حتى حملت السيدة فهيمة ثم

وضعت حمدى .

وفيما كان يوما حسن بك ـ بعد بلوغ حمدى السنتين من عمره ـ جالساً مع صديق له من مأمورى الشرطة يتحـــادثان ، وإذا بجندى الشرطة يحمل لقيطة عثر بها فى ناحية من الشارع ، فلما قص حكاية عثوره عليها ، مد حسن بك يديه إلى الجندى فتناول طفلة لطيفة سرعان ما احتلت قلبه ، فلم يتمالك نفسه من التعبير عن ذلك لصديقه ، ثم توسل إليه أن يساعده فى التصريح له بالقيام عليها كأب حنون ، ولقد سر المأمور ذلك ، وأسماها حكمة ، وما هى إلا بضع الساعة حتى كانت اللقيطة بين يدى حسن بك فى عربة تخترق الشوارع المؤدية إلى بيته .

وكان الزوجان قد بلغا من العمر عتيا ، فلم يرزقا غير حمدى بيد أن رحمة الله الواسعة قد أرسلت إليهما ابنة جديدة راعيا الله فى تربيتها ، بل ولم يشعراها بأنهما غريبان عنها ، فكبرت حكمة وهى معتقدة أن أبويها هما اللذان يعولانها ويربيانها ، وكان حب الزوجين قد مهد السبيل لحمدى فأنزلها من قلبه أيضا منزلة الشقيقة ،فكان يقف بجانب درجة سـ ـلم العربة الطوافة المدرسية

لاستقبال حكمة التى اعتاد أن يحمل لها جعبة كتبها ، ثم يقبض على يدها بيده ويصعد بها إلى أمه متهالا فرحا ، تلك الأم التى كانت كلما رأتهما فرحين ، ضمتهما إلى صدرها ، ثم سجدت لله شكراً على ما أولاها من نعيم بوجودهما !

بيد أن الهناء الدنيوى كثيراً ماتعتوره صدمات توقفه لفترة من الزمن أو تبتره بتراً ، فبينما تكون النفوس طربة بما يتجدد لها من معالم السرور بنعم الله ، إذ تصاب بما يحول مجرى أفراحها إلى وديان الحزن ، فيتبدل ذلك الهناء بنوع من أنواع الشقاء ، وبالعكس قد تعتور أيام التعاسة زوابع تقتلص جذورها . فلا يبقى أثر لحزن ، وعلى هذه السنة الحكيمة قد افتقدت السيدة فهيمة زوجها حسن بك بانتقاله فجأة إلى عالم البقاء حيث باقى وجه ربه ذى الجلال والاكرام

* * *

وكانت السيدة فهيمة قد اتخذت العادة التى جرت عليها المصريات فى الذهاب إلى المقابر يحملن ما خف أو ثقل حمله من الخبز أو الفاكهة والكعك ، وكانت إذا أخذت مجلسها بجانب

قبر ميتها ، توالت فى المجىء عليها فرق الأطفال الضالين ، وكذلك جماعات من يطلقون على أنفسهم الفقهاء وما هم فى الحقيقة إلا السفهاء ، يستجدونها العطاء المعروف بالرحمة ، وفيما كانت السيدة فهيمة جالسة مع صديقاتها توزع هذه الصدقات التى جاءت بها ، وإذا برجل رث الثياب حافى القدمين ، قد استأصل سوء الخلق محاسن وجهه ، وقف أمام قبر زوجها حسن بك بغتة وأخذت العبرات تنهمل من عينيه ، ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يتلو الفاتحة .

وبينما كان هذا الرجل يهم بالرواح ، إذ سمع صوت سيدة تناديه ، فاتجه إلى يمينه فوجد السيدة فهيمة تقول وهى مشيرة إليه : أتعرف قبر من هذا ياسيدى ؟

الرجل : بلى ! تغمده الله برحمته . . إنه المرحوم حسن بك ، وكان لى به والد آخر غير والدى الحقيقى ، وكانت زوجته بارة بى !

فلما سمعت السيدة فهيمة منه ذلك شعرت بحركة غير مألوفة قد اعترتها ، ثم حدقت فى الرجل تحديقاً كبيراً وأشكل عليها

أمره ثم قالت وهى مطرقة : من أنت أيها الرجل ومن عائلتك ؟

الرجل : لماذا تسألين ياسيدتى ؟ اتركينى لحالى فحسبك ما ترينني عليه من شقاء ! لاتؤلمنى بالذكرى فقد جردت كل مشاعرى منها .. (ثم هم بالذهاب)

فهيمة : لاتذهب بالله عليك ،لقد أضعف الحزن ذاكرتى وتعال .. اقترب منى ألست أنت خليل ابن السيدة فاطمة ؟

وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى وقع خليل على اقدامها باكياً ، فرت السيدة فهيمة بيدها على رأسه وقد لف عليها لفافة ، ثم أخذت تعزيه بكلمات رقيقة ، ثم انتحت به جانباً فأخذ يحدثها فيما كان من أمره مع والديه ، ثم حكى لها ما كان من أمر معرفته وزواجه برقية التى عاش معها أكثر من عامين (كان فى خلالها يأخذ قهراً أجرها وأختيها فى الخياطة) ، وكان كلما ذكر إسم رقية سبحت مآقيه بالعبرات ، فاستفسرت السيدة فهيمه عنها

فقال بصوت يتهدج أسى : إنها ماتت ياسيدتى بالحمى ، وقد ماتت أختاها بنفس هذا المرض قبل موتها ببضعة أيام ... وإنى

ياخالة كلما طافت بي ذكراهن أو أرجعت البصر كرة إلى حياتي المملوءة بالشقاء ، وجدت في حضوري لزيارة الموتى تعزية لي وسلوى ! (وهنا اعتورت خليل نوبة بكاء حار)

فهيمة: لعل ماتركته لك من خلف قد افترسه الموت ؟ مسكين أنت ياخليل !

خليل : (بصوت متهدج ودمع دافق) ليت من تركته لي وديعة الوالدة للوالد قد مات . . إذن لكان هناك حد لآلامي . . إن الموت قاس ، ولكنه حد يقف عنده الأسى الذي إذا أدرك غايته أذابه كر الأعوام ولا ترجعه إلا الذكريات القصيرة الأوقات ! لقد فقدت إبنتها الوحيدة بعد أربعة أيام من وفاتها ولم أعثر عليها ... ولكن . . .لا..وأستغفر الله . . بل انتزع الفساد مابي من حنان ، فألقيت بفلذة كبدي إلى ناحية الطريق ثم وجهت نظر رجل البوليس إليها فجاء وذهب بها إلى حيث لا أعرف لها مقراً !

فهيمة : ويحك ياقاسي القلب . . كيف تفعل بولدك مالا تفعله الحيوانات العجم ؟

خليل : قد كان ياسيدتى كل ذلك .. وأنا الآن حليف أسقام وأوجاع، وكلما رجعت إلى نفسى فحاسبتها ، ولا يسعك ياسيدتى أن تنكرى على ذلك لما تعلمينه من حالى ، لأن لكل نفس ثورة مهما تسفلت ، فإذا اشتعل بركان هذه الثورة بمؤثر غير عادى وكدحت النفس بما فطرت عليه من حالى الطهر والاباء ، تولدت الذكريات القاسيات فى رأسى فاستعرضتها واحدة بعد واحدة ، وأنا بين عذاب ووخز الضمير ! أواه ياخالة وكأنى الآن أرى رقية البائسة قادمة إلى على رأس جماعة كبيرة العدد مرهفة العدد .. ولكن .. آه .. إنها الآن فى حلة بيضاء ناصعة ، يتفجر النور من بين ثناياها وينبعث من محياها !

انظرى .. انظرى .. ياخالة .. هاهى تقترب منا شيئا فشيئا .. ولكن ماذا أرى بيمينها ؟ قضيب من نار ملتهب ؟ ! ويح نفسى ! لقد ظلمتها بالأمس وهى ضعيفة الحول وكنت أسطو على أجر خياطتها فجاءت اليوم بقوتها الناربة لتقتص قصاصا عادلا .. أواه .. مالهؤلاء الجند المسلحين يتبعون خطواتها .. أواه .. ماأرهف نصالهم وأنكر وجوههم ؟! القصاص .. القصاص .. تلك هى

كلماتهم التى أسمعها !

فهيمة : إنهم لجند الضمير يا خليل .. يتمثلون لك كما كنت تتمثل لأولئك الذين قسا قلبك عليهم فأخذت سهام لهوك فى صدور عفتهم وطهارتهم وإبائهم . بل وقطعت بأيديك أوصال قلوبهم .. أترى جندا ؟ ! إنهم لأشباح الذين آذيتهم وأشقيتهم فى حياتهم .. تراهم عند رجوع نفسك الشقية إلى حظيرة الفطرة حيث يكون الطهر سياجها الغريزى .. أتتألم اليوم ؟ ! نعم لشد مايكون ذلك الألم ! ولكن هذه ثورة سطحية تنعكس فيها آية خلقك ونفسك التى نشأت فى السوء وربيت مع الفجور .. أتتألم ياخليل ؟ تألم ! فان هذا الطوفان النفسى لا يلبث إلا قليلا حتى يزول ثم تعود نفسك إلى حالها !

* * *

وكان ماقالته هذه السيدة من الطوفان النفسى الذى اعتور خليلا هو الحق الذى لاريب فيه ، فانها لم تكد تنتهى من كلماتها إليه حتى أخذ خليل يجمع شتات حواسه التى كان قد افقدها فى ثورته الروحية على صدى نقرات موسيقى حزينة

فنهض خليل بغتة بعد أن أنصت قليلا ثم هم بالرحيل وكأنه استشعر بغزارة مدامعه المنهملة فأخذ يجففها برقعة بين يديه ، وفيما كان كذلك وإذا بالسيدة فهيمة وقد وقفت ثم اقتربت منه كثيراً ووضعت شيئاً من النقود فى يده صدقة على زوجها ، فتقبلها خليل شاكرا مسترحما ، بيد أن فهيمة قد طلبت إليه أن يزورها فى بيتها الذى أخبرته عن مقره فوعدها بذلك

وإنها لأيام قليلة حتى كان خليـــل يطرق باب السيدة فهيمة من يوم وآخر ، وإذا بها تحنو عليه فى كل مرة بالعطاء من مال ولباس ، حتى اعتادت حكمة أن تستبق نصيبها كله أو جله من الفاكهة أوالحلوى أو النقود ، فاذاحضرخليل إلى المنزل، أعطته كل ذلك عن طيب خاطر .

واتفق يوما أن السيدة فهيمة شاهدت حكمة وهى عارية الجسد فى داخل الحمام ثم وقع نظرها على ساقها الأيمن،فلاحظت وشما مدموغا عليه وهو (ح . خ) وفيما هى تتطلع إليه إذ خطرت لها حكاية خليل التى قصها عليها يوم كانت عند قبر زوجها ، وسرعان ماتسربت إلى رأس السيدة فهيمة فكرة

غريبة وهى أنه من المحتمل أن تكون حكمة هى تلك اللقيطة ، وفيما كانت السيدة فهيمة على حالها هذا من الاضطراب الفكرى ، وإذا بالباب يطرقه خليل ، فاذنت له بلقائها، وما هى إلا دقائق معدودة حتى كانت على قرب منه تحادثه

فهيمة : ذكرت لى ياخليل ما كان من أمر زواجك بامرأة غير ابنة عمك ثم ارتزاقك منها بطفلة ألقيت بها إلى الأرض ليحملها رجل البوليس كلقيطة ، فهلا تعرف شيئاً فعلته فى هذه الطفلة المسكينة أمها ؟

خليل : (بعد أن أطرق قليلا يفكر) : إنى أذكر شيئاً هاماً جداً ، نعم أذكره ، وذلك أنه لما بلغت ابنتى الثلاثة أشهر من عمرها سقطت من بين يدى إحدى خالاتها لمسافة قريبة ، فحصل لها بعض رضوض فى ساقها الأيمن (وما كاد خليل ينطق بهذه الكلمة حتى تملكت السيدة فهيمة هزة غريبة جعلتها تحملق كثيراً فى خليل) فحضرت إلى مسكينتاً عجريه وامتزجت عاليا أن تدق على فخذ الطفلة أى تدمغه بوشم وقد كتبنا الحرفين الأولين من اسمها فى موضع الرض بالساق الأيمن (فزادت حملقة فهيمة

فهيمة : وماذا كان اسمها ؟ لعلك أسميتها اسماً لطيفا ؟ (متعمدة الابتسام)

خليل : كانت سمية لكريمتك العزيزة حكمة !

فهيمة : اسمها حكمة؟ أتقول إن اسمها حكمة ؟ يالله (ثم تمتمت بضع كلمات لم يسمعها خليل) — وكانت قد أزفت ساعة رحيل خليل إلى عمله ، فاستأذنها فى الرحيل ثم تناول يدها كعادته فقبلها احتراما وخرج

* * *

وكانت السيدة فهيمة قد قررت أن تجمع بين الابنة وأبيها ، ولكن مع الحذر الشديد والمراقبة التامة ، وبغير أن يعلم أحد منهما أو أى مخلوق بحقيقة أمرهما ، وكان بواب المنزل محمدين قد أهمل كثيراً فى أعماله لانهماكه بمجالسة إخوانه ، فقررت أن تستبدله بخليل الذى كان قد أصبح فى أسوأ حال ، يتعيش من حمل الضائع ثم انزلها إلى غرفة الشحن وأظهرت رغبتها هذه له وأطمعته بزيادة جعله الشهرى ، فقابل رغبتها بالحمد بيد أن السيدة فهيمة اشترطت عليه أن يحسن سلوكه ، ولكنه كثيراً

ما كان يتغيب عن البيت ويذهب إلى الحـــانات لمعاقرة الخمر ، فاضطرت السيدة فهيمة أن تتخلى عنه وأن تكتفى بالاحســان إليه كلما عاد إليها تقتله الحاجة ، بيد أن تعاسة حاله قد أورثته أمراضا لازمته طويلا من الزمن ، لاقى فى خلالها أشد الآلام

* * *

فلما استفحل مرض خليل ، وشعر بدنو ساعة الموت فى تلك الغرفة التى يسكنها ، ر - م على يديه إلى زاوية من الغرفة كان قد وضع فيها صندوقا صغيراً جمع فيه خرقاً بالية وقطعاً من الورق ، وكان للصندوق درج صغير وضع فى أحد أجنابه قلماً ومحبرة ، ثم اتكأ على جدار هذا الصندوق وأملى قلمه وكتب فى تلك الرقعة كثيرا ، فلما انتهى من الكتابه التى كانت تمطرها عيناه وابلا من الزفرات الملتهبة ، واتفق أن دخلت الحاجة زينب صاحبة المنزل التى كانت تؤدى له كل مايلزمه من خدمات دخلت هذه المرأة الشريفة إلى غرفته ، فأدهشها قعوده واشتغاله بالكتابة ، وجزعت جزعا عظيما لبكائه فقالت له : ماذا دهاك ياخليل .. أتشكو ألما ؟ ! ...

خليل : أشعر بحالة خاصة ولا أظن إلا أنها حالة الاحتضار للموت . . ولهذا فكرت ألا أودع هذا العالم قبل أن أرسل بكلمة ألتمس فيها عفو والدتى وزوجتى وولدى . . وحبذا أيتها الخالة لو تختمين جهادك الانسانى معى بمكرمة تسليم هذه الوصية فى الحال إلى أهلى فى المنزل رقم ١٠٠ بشارع العدلية

الحاجة زينب : ستكون وصيتك بين أيدى أهلك فى أقل من ساعة إن شاء الله لأنى سأرسل بها ابنتى عزيزة حالا !

وقبل أن تخرج من الغرفة ، مد إليها يديه طالبا فى المساعدة على الرجوع إلى فراشه ، وما كاد بمساعدتها يتمدد على الفراش حتى خرجت إلى ابنتها عزيزة وبيدها صحيفة مطوية فعرفتها بيت خليل ، وكلفتها الاسراع فى الذهاب إليه وتسليم هذه الورقة إلى صابر شخصياً أو جدته .

فخرجت عزيزة مسرعة حاملة تلك الرسالة ، أما الحاجة زينب فقد عادت إلى غرفة خليل ، ولكنها ما كادت تجابه خليلا بوجهها وهو منسطح على ظهره حتى أدركت أنه فى حالة النزع لخروج الروح ، وقد افتقد الكثير من سمعه ونطقه ، واعتورت

لسانه لعثمة . ثم تبعت ذلك شهقات حادة كانت تظن فى كل واحدة منها أنه يودع بها آخر لحظة فى حياته الدنيا !

وكانت حدقتا عينيه الدعجاوين قد رفعتا فى أعلى المقلتين ، ولم يعد يظهر من العينين إلا بياضهما الجاف ، ووقفت الجفون عن الحراك ، فلم يبد منها علو ولا انخفاض ، ودالت دولة النظر فلم يبق إلا خيال كحلم النائم يسبح فى دياجير الماضى القديم والحديث بين الألم والعذاب ، فاذا أراد أن يذرف دمعة الندم والاستغفار أبت عليه مقلتاه !

وكانت وجنتاه قد كستهما صفرة زهرة الشمس غير أنهما لا يزدهيان كما تكون عليه تلك الزهرة اليانعة من انتعاش إذا بللها الماء ، وإنهما لربوتان قد أصابهما القحل ليس فيهما من نضارة الأزهار ولا لطيف جريان الأنهار ، قد نبت فيهما العشب ، فالبث أن جفت أعواده من الظمأ لمحل معين الحياة ، فأضحى قفراً موحشاً لاتجد فى التطلع إليه نزهة للنفس ولا راحة للقلب !

أما فمه فقد ارتخت شفتاه بعد أن فرت حمرتهما واحترق أديمهما ، فلم تعد تشهد فيهما إلا نوعا من الخضاب الأسود وقد

امتزج بشحمهما ، وكانت قد بانت تحت هذا السواد أضراس تخر فيها السوس ، وكذلك نضع أسنان لب بجذورها خبث مافى المخدرات السامة فأصبحت تتحرك بتحريك الفكين اللذين أوفقتهما وحشة الموت !

ومرت ساعة والحاجه زينب جالسة بجانب خليل وهو يحتضر للموت، وكانت كل ماتستطيع عمله هو تقطير قطرات الماء فى فمه الذى كثيراً ما كانت تصطك أسنانه ، فاذا نزلت قطرات المياه فوقها فتح فكيه قليلا واستحاب هذه القطرات بباطنه عظم بحيث لاتكاد تظهر حركة على فمه .

وبينما كانت زينب تنتظر بفارغ الصبر آخر شهقة لخليل يحتجب بعدها هذا السر الخفى وهو الروح ، وإذا به وقد علت ثغره المكتئب ابتسامة شذية . وفيما كانت ترقب بعجب مايفعله هذا المحتضر ، وإذا بعزيزة ابنتها قد وقفت على رأسها تنشها بمحيا صابر ووالدته وجدته ومعهم حمدى ابن الجارة الكريمة السيدة فهيمة .

الفصل الخامس

العواطف

لشد ما ينكر الناس أوجاعهم، ولو بحثت بين صفحات قلوبهم لشاهدت لسعات هذه النيران المتقدة المستعرة قد أعيت جوانحهم وأسقمت أفئدتهم وقرحت قلوبهم، والناس فى نكرانهم لحالهم يخدعون فى الحقيقة أنفسهم أكثر من خدعهم لناظريهم لأنهم لا يرمون بعملهم هذا إلا مجرد خلق سلوى وتسلية أو تعزية لهم على احتمال المصائب التى نزلت وتنزل بهم. هـــذه هى حقيقة أسرة الشيخ محمد منذ قضى الله بساعة الفصل بينها وبين خليل ابنه أن فاطمة وصفية وصابرا لا يبتسم لهم ثغر إلا عن مضض ورغم أنف، لأنهم بينما كانوا يشعرون فى اجتماعهم بشىء من السرور الذى يجليه صفاء الأخلاق وطهر النفوس فتبتسم ثغورهم على غير رضى منهم، نرى أنهم سرعان ما يحسون بشىء أشبه بتأنيب الضمير على خيانتهم لتلك العاطفة الشريفة التى لا تلبث أن تجيش فى قلوبهم وبين جوانحهم عاطفة الاستمساك بالحنان

الوالدى والميل إلى الزوج والرغبة فى الاستمتاع بقرب الوالدين مهما قست القلوب وتحجرت الأفئدة !

وكان صابر قد نجح فى إجازة الحقوق ، فابتدأت الجدة فاطمة تفكر ملياً فى أمر زواجه الذى كان جل ما تطمح إليه نفس صفية ، ولكن من هى تلك العروس الكريمة الدوحة العريقة فى الحسب الرفيعة العماد فى الأخلاق التى تتفق مع صابر فى كريم شيمه ؟

أخذت السيدتان صفية وفاطمة فى ارتياد المنازل التى تعلمان بوجود الكواعب فيها لتختطبا من بينهن واحدة لصابر ، وكان من البيوت التى طرقتا أبوابها منزل المرحوم حسن بك لتشهدا حكمة التى أشار عليهما صابر بالذهاب لرؤيتها ، ولا تسل أيها القارىء الكريم عن مبلغ مالاقتهما به السيدة فهيمة من الحفاوة ولا عن مبلغ سرور السيدتين صفية وفاطمة باجتماعهما بجارتهما العزيزة ثم بتلك الدرة اليتيمة التى دخلت عليهما فى حلة أرجوانيه يعلوها وجه هو البدر الذى كمل نوره ، ذات قوام معتدل رشيق فامتلكت بسحر جمالها قلبيهما .

وكانت السيدة فهيمة لم تحظ بالاجتماع بجارتيها منذ انتقلت من جوارهما، وعندما علمت برغبة الخاطبتين، اضطربت جوانحها وأفكارها، ثم وقعت فى حيرة كبرى، على أنها وعدتهما على أن يكون ذلك بعد أمد قريب نظراً لظروف خاصة بها. وفيما كانت السيدتان تتكلمان فى أمر الزواج، كان حمدى وصابر الصديقان الكبيران المخلصان، قد وصلا إلى المنزل ثم دخلا إلى غرفة الاستقبال فى الدور الأول من البيت، وبغير علم بما يجرى فى الدور الثانى ولا معرفة بوجود الجدة وصفية فى المنزل حيث كانتا لم تذكرا لصابر عزمهما على الذهاب فى هذا اليوم.

ولولا تعود صابر على مرافقة حمدى إلى منزله عقب خروجهما من أعمالهما التى كانت مواطنها قريبة لبعضها بعضا، لما وقع هذا الاتفاق الغريب.

وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث، وإذا بالخادم يطرق باب الغرفة، فلما أذن له دخل عليهما وأخذ فى الحديث قائلا:

امرأة واقفه على الباب تطلب صابر بك

صابر: أتطلبنى أنا؟ أنا؟ أنا؟

الخادم : نعم ياسيدى ويظهر أنها تحمل رسالة هامة لم تشأ أن تسلمنى إياها خشية إطلاع أحد غيرك عليها !

الدكتور حمدى : قل لهذه المرأة أن تدخل . . وسأخلى لكما المحل ياصابر حتى إذا انتهيت من معرفة أمرها دعوتنى

الأستاذ صابر : لاتذهب بالله عليك . . فليس لى سر ، ولم أتعود قط والحمد لله مكاتبة ذوات الأسرار .

وكان الخادم قد خرج فى هذه الأثناء ، وبعد هنيهة ظهرت أمامهما عزيزة تحمل بيدها صحيفة مطوية .

صابر : من تريدين ياسيدتى . أنا صابر المحامى فهل تحملين هذه الرسالة إلى ؟

عزيزة : نعم ، وقد ذهبت إلى بيتك ياسيدى فلم أجد هناك غير الخدم الذين أخبرونى باسمك ووصفوا لى محلة عملك ومكانها وقد طلبوا إلى أن أودعهم الرسالة فلم أشأ عملا بوصية أمى ، وقصدت مكتب أعمالك فأتى بى الخادم إلى هنا ، ومن غريب الاتفاق ياسيدى أن أعلم عند وصولى الآن أن والدتك وجدتك قد حضرتا قبل وصولك ، كما أخبرنى خادم البيت

وكان صابر قد تناول من يدها الرسالة وكشفها وأخذ يقرأها سراً ، وما كاد يصل إلى نصفها حتى توجه إلى صديقه حمدى ونظر إليه بعينين سابحتين فى الدمع قائلا : تقول الرسولة إن والدتى وجدتى فى حضرة السيدة والدتك ، فإذا كان ما تقوله صدقاً ، فأملى أن تخبرهما أنى أريد أن أراهما الآن لأمر هام جدا

حمدى : سمعاً وطاعة . وأرجو أن يكون ذلك خيرا !

قال ذلك الدكتور حمدى بينما كانت خطواته تذهب الأرض ذهاباً وإياباً داخل البيت ، أما صابر فقد عاد إلى قراءة الكتاب وعبراته تنهمل ، وقد نسى أن يشير إلى الآنسة عزيزة بالجلوس لأنه ذهل بما وجده فيها من العبرات ، حتى اضطرت عزيزة أن تجلس على أحد المقاعد مستأذنة منه بصوتها المنهدج المضطرب لما بذلته من جهد عظيم ، فلما استشعر بذلك أسف وأراد أن يعتذر لها ولكن الغم والحزن قد أبكما فمه ومزقا قلبه وأسكبا دمعه !

وما هى إلا بضع دقائق مرت عليه وهو على أحر من الجمر ، وإذا بالسيدتين فاطمة وصفيه أمام ولدهما صابر يسمعان خلاصة

مافى الخطاب ، وكانت الآنسة حكمة فى جلسة بين آنسات تعودن زيارتها فى كل أسبوع للسمر ، فكان كل ما علمته أن خليلا كان من عائلة كريمة ، وجاء اليوم بهذه الرسالة يتطلب عطف أهله ، وقد ساءها أن تعلم خبر احتضاره للموت ، فأخذت وحدات اللؤلؤ المنثور تتساقط من مآقيها ، ثم غمرها العرق فكانت مسام جسمها وكأنها ينابيع ماء الورد تقطر فتجففها يداها اللطيفتان بتلك الرقعة الحريرية التى اختمرت فيها مدامعها ، فكان لها شذا يستحب تنسمه وشمه .

* * *

وماهى إلا دقائق معدودة حتى كان الجميع (ما عدا فريدة وحكمة) عند خليل ، وكانت عبرات السيدة فاطمة التى تساقطت على وجهها كالمطر ، بمثابة المراد المنعشة التى يستنشقها الصرعى ، فقد انتعش المحتضر بها وبدأت بعض الحركات تبدو على يديه ورجليه وعينيه ، أما أصابعه فقد كانت تقبض ثم تفرش ، وكذلك فقد تشربت الوجنتان بقليل من الحمرة أو ظلها الضئيل كما أسدلت العينان ثم نصبت ، فاذا بالجمع يرى خليلا يحدق فيهم

بعينين حادتين ، ثم عرت جسمه قشعريرة ، وكذلك فتح ذراعيه وأطبقهما كأنه يعانق عزيزا له كان قد هجره ثم عاد إليه ، وعلا صوته فى نوع هذه الألفاظ غير المفهومة أو التمتمة . فاقترب ولده منه لعله يستطيع فهم شىء منه ، ولكن عبثا حاول، بيد أنه بينما كان يناجى والده الحديث ، إذ وقع صوت حمدى فى أذنه يناديه : علينا أن ننتهز فرصة انتعاشه فننقله إلى البيت

صابر : ولكن بيتنا بعيد جدا ، ونخشى أن يموت معنا فى الطريق أو أن يؤثر عليه تعب الانتقال

حمدى (بعد فحص المريض سطحيا) : لا داعى للخوف الآن ، وسننقله إلى بيتنا لقربه ، وقد ذهبت الآن وأخبرت والدتى بالتليفون لترسل بسرعة سيارتنا إلى هنا وستكون السيارة هنا بعد بضع دقائق

فاطمة : نشكرك ياولدى العزيز

حمدى : لا حاجة إلى الشكر ياوالدتى ، فانى أقوم بعمل الواجب على .

وما كادوا ينتهون من حديثهم القصير هذا ، حتى لاحظوا

أن رأس خليل تتحرك إلى الجهة التى يجلس فيها صابر وصفية ، ثم أخذ يحدق فيهما بعينيه السوداوين وعاد إلى ألفاظه المبهمة ، بيد أنها كانت أكثر وضوحا منها من قبل ، على أن الله سبحانه وتعالى كان قد حرر لسانه من العقال فأخذ يناشدهم ويناشدونه !

خليل : أرى أمى ! ؟ . . يا لله . . . وولدى صابر ؟ ثم زوجى بل إبنة عمى ؟ أرضيتم جميعا . . . ما أكرمكم

صفية : لقد جئنا لنفتح قلوبنا إليك يا ابن عمى ، لتتزود من حنانها وعطفها عليك ، فاذكر الآن حاضرك وحسب ؛ فهلا تشعر بسعادة بحضورنا جميعا إليك ؟ لاتيأس ، فقريبا يكون شفاؤك ، ولن تجد فينا إلا جوانح تضمك كضمها للقلوب . . تشجع . . فأنت بين أهلك وذويك !

الحاجة زينب : لا بأس عليك ! شد حيلك !

خليل : أرأيتم كيف يحيي الله الموتى . . لقد أحيانى الله بوجودكم !

وكان قد أتعبه الكلام كثيرا وعرته ملالة المريض ، فأسبل

عينيه وسكت لحظات طويلة حتى ظن الكل أنهم قد انتهوا منه ، ولكنه عاد فتحرك ثانية وأشار بيده إلى الحاجة زينب التى خدمته وإلى الآنسة عزيزة التى صيبت الجمع بينه وبين أهله وإلى السيدة فهيمة وولدها اللذين أحسنا إليه ، قائلا : أيها الناس إن من يرفع عن البائسين بؤسهم ويعزى المحزونين بالعمل الصالح ، لا يعدم مكافئا ولا شاكرا . . وإن لم يجد من الناس فليرقب نعماء الله الكريم الأكرم التى تنهطل عليه فى دنياه وآخرته !

* * *

وكانت السيارة قد وصلت إلى باب البيت وأعلن الكل بذلك ، فقاموا سراعا إليها حاملين بين أياديهم خليلا الذى وضع فى العربة وبجانبه الوالدة والزوجة والحاجة زينب وبنتها ، أما صابر وحمدى فقد ركبا بجوار السائق ، وما هى إلا دقائق معدودة حتى كانت السيارة أمام بيت المرحوم حسن بك ، فحمل خليل على الأيدى وأدخل إلى إحدى الغرف ، وهناك تقدمت السيدة فهيمة والآنسة حكمة إلى خليل فقبضت كل منهما على يد من يديه الباردتين وأخذتا تشجعانه على احتمال الآلام ، وارتأت السيدة

فهيمة أن تفرش له بعض المراتب القطنية فوق أرض إحدى الغرف بدلا من وضعه على سرير عال ، وذهب حمدى وصار لاستحضار بعض الأطباء !

وفيما كانت فهيمة وحكمة جالستين محاولتين انعاش خليل من تلك الغيبوبة التى كانت تعتوره آنا بعد آن ، إذ خطرت لفهيمة فكرة كشف الستر الذى تعلله عن حكمة إلى خليل ، إلى أن أخذ خليل يتلفظ ببضع كلمات ذهبت بقوة عزيمتها إذ سمعته يقول : رباه ... لقد كنت لى كريما رحيما رغم ما كنت عليه فى حياتى من فجور ... ضرعت إليك أولا فى شدتى فأجبت جل دعواتى وجمعت بينى وبين أهلى .. رباه .. إنى لأضرع إليك ثانية فى ساعة احتضارى للموت أن تجمع بينى وبين حكمة كما جمعت بينى وبين أخيها . . رباه . . إن دعاء المكروبين والمساكين ينفذ إلى سمائك العلى . . دعوتك وأنا صريع الجهالة وسوء الخلق . . فتقبل توبتى وأجب دعوتى . . رباه . . إن باب رحمتك يسع كل من يضرع إليك وقد تلبد شحم قلبه بأديم الإيمان المتين والحق الوطيد ، فافسح لى اللهم بين التائبين الذين قبلت توبتهم مجالا كريما

فأنت التواب الرحمن الرحيم . . رباه . . إنى ظلمت وجحدت وأفسدت وعتوت وكفرت بنعمائك وأتيت كل منكر وجئتك مستغفراً فارحمنى . . ولا تخيب رجائى فى دنو رحمتك منى ، ولقد قلت فى قرآنك الكريم وقولك الحق اليقين « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم »

وكان لنقرات صوت خليل المتهدج فى ضراعته إلى الله عز وجل ، وقع عظيم على مسامع فهيمة ، فاعتزمت أن تواجه خليلا بالحقيقة وهو على باب القبر أولا وبمعزل ثانيا ، فقالت : لقد أجاب الله ضراعتك ياخليل ، وهاهى ابنتك حكمة بجانبك !

خليل : بجانبى ؟ ! . . رباه . . بجانبى ؟ . .

فهيمة : أقول أكيداً ياخليل ، فابنتك حكمة التى ضرعت إلى الله أن يجمعك بها ، هى نفس إبنتى حكمة التى على يمينك الآن !

حكمة : ماذا تقولين ياأمى ؟ ! دعينا من هذا !

فهيمة : ثق بما أقوله الآن . . ها هى إبنتك بجانبك !

خليل : رباه . . كيف أفهم ذلك

فهيمة : إنك تفهمه . ن ذلك الوشم المدموغ على ساق ابنتك الأيمن

خليل : أين الوشم ؟ أين هو ؟ أرينى ؟ ... رباه . . أتجيب دعاء المحزونين والمكروبين والبائسين بمثل هذه السرعة . . ما أرحمك وأكرمك !

حكمة : رباه . . ماذا أسمع وأرى ! !

وبينما كانت حكمة فى دهشة وقد أذهلها ما سمعت، تقدمت السيدة فهيمة إليها ، ثم رفعت بيدها عن ساق حكمة وهى جالسة على يمين خليل وقالت :

انظر أليس هذا هو الوشم الذى قصصت على حكايته ؟ !

خليل : (محملقا فى الوشم) نعم . . نعم . . بنتاه !

* * *

وما كاد يقع نظر خليل على هذا الوشم الذى طبع على ساق من المرمر المستشرب بقليل من الحمرة الوردية اللطيفة ، حتى عرته نوبة شديدة حركت جميع أعصابه وردت إليها كل قواها فاستدار بسرعة غريبة ليواجه إبنته التى ضرع إلى الله أن يجمعه

عليها قبل موته ، وسرعان ما أخذها بين ذراعيه اللذين قد أعيدت إليهما قوة فجائية ، ومن ثم أخذ يرتشف من ثغرها العذب قبلة فأخرى فأخرى ، ولكن واأسفاه فقد كانت قبلات اللقاء هى عين قبلات الوداع ، بيد أن ذلك قد سبقه مثل للرحمة الإلهية التى لا تغيب عنا والتى ترمقنا رغم ما نحن عليه من سوء الخلق!

انظر كيف يجيب الله دعاء من يدعوه فى شدته وضيقه وفى رخائه ونعيمه ، أليس هذا الاله الرحمن الرحيم جديراً بالتقديس والعبادة فى كل آن ؟ ولكن وا أسفاه . . إننا لا نعبأ إلا بالحاضر ولا نذكر الله إلا عند ما تكون سفينتنا تتخبط فى دياجير ظلمة البحار الموحشة حيث تكثر الزوابع وتتلاطم الأمواج ويتمثل شبح ملاك الموت فى كل طرفان يغمر جوف جاريتنا ! هناك بل وفى تلك اللحظة فقط نشعر بواجباتنا نحو موجد الوجود ومدبر الأمور ومصرفها ، كأن لم يكن له علينا عز شأنه حقوق الطاعة والاعتراف بنعمائه التى لا يمكن حصرها « والذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »

وبقيت رأس خليل محمولة على كتف حكمة التى أرادت أن ترفعها بل ترفع رأس والدها بين يديها لتتمتع بالنظر إليه وبوضع قبلة على وجهه المقمع بصفرة الموت من ثغرها الملتهب بنيران الحنو لوالد جهلته ، فطاش سهمها وخاب رجاؤها ! ولقد سبلت عيناه اللتان لم تمتلئا بعد حبوراً بوجدان ضالته، وقفل فمه الذى لم يلفظ منه كلمة بعد ليتسرب سحرها الحلال إلى قلب ابنته ، ثم أوقفت دقات قلبه الذى لم يطل نحركه حناناً على وحيدته ، وهكذا فقد سكنت أنفاسه التى طالما تأوهها تحسراً وأسفاً على فقدانه لكريمته !

لقد مات خليل . . لقد مات . . مات الوالد بينما كانت ابنته حكمة بين ذراعيه وقلباهما على اتصال بتيار الحنان الكهربائى ، فما أقسى الموت وأوحشه . . فقد فرق بين الحبيبين بعد جمع شتاتهما !

حكمة : أبى . . أبى . . لقد مات ياأماه . . آه ليتنى لم أعرفك . . ليتنى لم أشهد هذه اللحظة التعسة التى قضيت فيها نحبك أيها الوالد البائس !

فهيمة : اسكتى ياحكمة ولا تذكرى ما وقع الآن لأى مخلوق! دعينى أسند هذه الجثة بمفردى وحسبك بكاء الآن ولا تحزنى ، واذهبى إلى السيدة فاطمة واستدعيها حالا إلى هنا !

وخرجت الآنسة حكمة من الغرفة ، ويعلم الله ما كانت عليه من حال ، فقد كانت تارة باكيةوأخرى صامتة ، ويا هول وقفتها أمام السيدات اللاتى كن يشتغلن فى إعداد الغرفة لنوم خليل ، فقد تلعثم لسانها واضطرب قلبها ، ولم تعد تدرى كيف تروى للسيدات الخبر ، بيد أن كثيراً ما يشعر الانسان بالأسى أو بالمصاب قبل نزوله به ، فلم تكد تلفظ حكمة كلمة واحدة ودموعها سباقة للفظهـــا حتى أدركت السيدات الأمر فصرخن وتركن عملهن مسارعات فى الذهاب إلى الغرفة التى تركن فيها خليلا وهن بين ولولة وصراخ . وكان قد عاد جمدى وصابر وبرفقتهما ثلاثة أطباء ولكنهم ما كادوا يدركون باب المنزل حتى فهموا من الصراخ واجتماع الناس حول البيت ، ما جعلهما يعتذران للأطباء

* * *

وفى اليوم التالى شيعت الجنازة بمشهد حافل بالناس ، وانفض

الجمع فلم يبق إلا القليل منه ، وبينما كان صابر واقفاً مع صديقه حمدى وهو غير متمالك نفسه ، وإذا بالسيدة فهيمة تقدمت إليه وهى قابضة بيمينها على ذراع السيدة فاطمة وبشمالها على ذراع الآنسة حكمة ، وكانت عيون الجميع محدقة بها لشدة الاندهاش ، لأن السيدة فهيمة كانت تصرخ بملء فيها « أيها الناس إن هناك سراً عجيباً ، والحق أقول لكم لن يكون سر حيث تنفذ إرادة الله فانصتوا إلى . . أرأيتم كيف يسعد الله المحزونين فى ساعة كربهم ؟ إنه يسعدكم الآن الجمع بينكم ووحيدتكم التى أوصاكم فقيدكم بالأمس بالبحث عنها ، ها هى حكمة أختك ياصابر وحفيدتك أيتها السيدة الحزينة نردها إليكما

صابر : أحقاً تقولين ياسيدتى ؟ ! يالله !

فاطمة : رباه . . ماذا أسمع ؟ !

حمدى : أماه ، هذه أختى وشقيقتى لا تمزحى بالله عليك . .

فلسنا فى موقف سرور وابتهاج

حكمة : أماه . . أماه . . ماذا تقولين ؟!

وما كادت تنهى [illegible] حتى قام صابر نفسه

واحتضن أخته واضعاً على وجهها قبلة أحر من اللهب ، وفيما يتناول القبلة الثانية كانت السيدة فاطمة تحتضن الحفيدين صابراً وحكمة ، وكأن لوعة الأسى ونشوة الفرح قد سلبتاها كل قدرة على الكلام ، فما كنت ترى إلا عيونا تمطر غزير المطر الملتهب من حرارة الفؤاد !

صابر : أخبريني بالله ياسيدتي هل أرضعت أختي في حاله طفولتها من ثديك الكريم ؟

فهيمة : لا ياولدي فقد جاءت أختك إلى بيتنا بعد أن كانت ألبان الرضاعة قد جفت من ثدي

صفية : إذن لا غبار علينا إذا زوجنا وحيدتنا بوحيدك ياسيدتي !

صابر : نعم ياأماه وليس هناك من حائل شرعي

فهيمة : إنكم تسعدوننا بذلك ياسادة

حمدي : نعم ياخالة ومتى تم ذلك فلا يكون إن شاء الله فراق بيننا وبين حكمة

أحد الحاضرين : إذن فلنقرأ الفاتحة (فرفع الكل أيديهم بتلاوتها)

* * *

وغادر الكل بعد ذلك المقابر قاصدين بيت المرحوم حسن بك وهم بين ألم لمصاب الموت وكذلك بين فرح الالتقاء فكنت أيها القارىء الكريم تراهم فلا تعرف الواحد منهم باكياً لشدة الحزن أم دامعاً لعظم الفرح ؛ وهكذا تجتمع الأحزان والأفراح فى الانسان الواحد فى الزمن الواحد ولله فى خلقه شئون

* * *

ولم يمض أسبوع واحد على وفاة خليل حتى أقيمت معالم الأفراح لزفاف العروسين الكريمين حمدى وحكمة

تمت بحمد الله ومعونته وحسن تدبيره ـ هذا وجميع الحقوق محفوظة لورثة الأستاذ المرحوم حامد المليجى : أمير وأميرة ورفيعة وشريفة ونبيلة المليجى .

مطبعة التقدم الصناعى بطنطا ٧ شارع نيرت الشهير بمصر